التجديد
المجلد 20، العدد 39 (2016/1438) 11-57
حقوق الطبع محفوظة ل IIUM Press
الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا
ISSN 1823-1926 (Print)

من قضايا التأصيل الإسلامي لمناهج علم النفس في الجامعات الإسلامية ووقفات مع أبي زيد البلخي

Some Issues Concerning the Islamization of the University Psychology Curricula with Reference to the Contribution of an Early Muslim Scholar AbË Zayd al-Balkhī

Beberapa Isu Tentang Asas Islam dalam Metodologi Psikologi di Universiti Islam dan Sumbangan AbË Zayd al-Balkhī

مالك بابكر بدري *

مستخلص البحث

يناقش هذا البحث المبررات الفكرية والعقائدية للتأصيل الإسلامي لعلم النفس. فما من أمة اهتمت بتنشئة شبابها على التمسك بقيم حضارتها إلا وقامت بصياغة علم النفس على أساس قيمها وتصورها للإنسان والكون والحياة. لذلك نجد الجامعات الكاثوليكية في الغرب قد رفضت الانصياع لنظريّات علم النفس الغربي وممارساته التي لا تنسجم مع فكرها الديني. كما قامت الأنظمة الشيوعية بما في ذلك الصين حتى الآن بإعادة صياغة علم النفس بما يتلاءم مع فكرها. وحتى علماء النفس في أوروبا ضاقوا ذرعًا ببعض ممارسات علم النفس الأمريكي. إذن فالتأصيل الإسلامي لعلم النفس قد أصبح فرضًا عينيا على النفسانيين المسلمين. ثمّ انتقل البحث إلى مناقشة التصورات المختلفة لحركة التأصيل الإسلامي الحديثة مبيّنًا اختلاف العلماء في تعريف مصطلح "الأسلمة"، وما

* أستاذ سابق لعلم النفس والعلاج النفسي في جامعة الخرطوم والعديد من الجامعات في العالم الإسلامي؛ عضو الجمعية البريطانية لعلم النفس؛ عضو اللجنة الخاصة بالتقاليد الصحية والأساليب العلاجية بالمنظمة العالمية للصحة (1980ـ1984)؛ يشغل حاليا أستاذ كرسي ابن خلدون في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. البريد الإلكتروني: malik1932@yahoo.com

تمخض عن ذلك من تطبيقات متناقضة. فبعضهم لا يرى في الأسلمة إلا الدعوة إلى الإسلام ونبذ كل ما أتى به الغرب من فكر نفسي واجتماعي، ومنهم من نظر إلى التأصيل الإسلامي بوصفه أداةً لتقدم الأمة الإسلامية والتخلص من المعوقات التاريخية وتقديس الماضي كي تنطلق الى رحاب التقدم العلمي وكأنّه الغاية المثلى للأمة. بعدها قدّم المؤلف مفهومه للتأصيل الإسلامي المتزن الذي يقوم على أربعة عناصر أو مفاهيم للأسلمة ليؤدي كل عنصرٍ منها مهمته في أحد جوانب التأصيل المهمة.

الكلمات المفتاحية: علم النفس، أسملة، التأصيل، البلخي.

Abstract

"Islamization" as applied to psychology and to give the necessary justifications for its significance. Psychology is a very important discipline in shaping the attitudes, beliefs and ethical behavior of young learners. That is why no group or nation would accept to teach its students modern Western psychology without adaptation unless it subscribes to the Western worldview of secular humanism. For this reason, we see that the Catholic Universities in the Western world refuse to adopt the modern Western curricula of psychology without 'Christianizing' them. Furthermore, we see that communist countries such as the Chinese and the old Soviet Union refuse to adopt Western psychology because of its capitalistic disguised message. We are even seeing today British and French psychologists irritated by the Americanization of their graduates though they are all Western countries only separated by the Atlantic Ocean. This leads us, as Muslim psychologists, to realize the importance of the cultural and Islamic adaptations of Western psychology. But to be able to Islamize, we should agree on what the term means. That is why the author discussed this issue in detail showing how a truncated or an overgeneralized conceptualization of this term can lead to limited or confused aspects of Islamic adaptation of psychology. Following this, the author gave his opinion on how a balanced approach on the Islamization of psychology should be presented.

Keywords: Psychology, Islamization, grounding, al-Balkhî.

Abstrak

Artikel ini membincangkan rasionalisasi pemikiran dan kepercayaan dengan asas Islam dalam disiplin psikologi. Ummah yang mengambil berat tentang pembentukan sikap, kepercayaan dan tingkah laku etika golongan muda supaya berpegang kepada nilai-nilai tamadun sudah tentu menyedari kepentingan ilmu psikologi yang berteraskan asas nilai dan tasawur Islam dari sudut manusia, alam dan kehidupan. Atas sebab ini, kita mendapati universiti-universiti Katolik di Barat menolak untuk menerima-pakai kurikulum psikologi Barat moden tanpa ada penyesuaian dengan pemikiran agamanya. Begitu juga negara komunis seperti China menolak untuk menerima-pakai psikologi Barat kerana tanpa menyesuaikan dengan aliran pemikiran mereka. Kita juga melihat hari ini bagaimana ahli psikologi barat

merasa tidak selesa dengan ilmu psikologi Amerika. Dengan sebab itu asas Islam kepada ilmu psikologi merupakan kewajipan fardu ain dalam diri setiap psikologis Islam, supaya mereka itu menyedari betapa pentingnya penyesuaian budaya antara Islam dan psikologi Barat. Tetapi untuk dapat meletakkan asas Islam, kita perlu bersetuju mengenai erti istilah Islamisasi yang dipakai dan bukan sekadar penukaran istilah atau penggunaan istilah umum yang membawa kepada penyesuaian yang terhad atau mungkin berlaku kekeliruan dalam psikologi Islam. Setengah pula melihat Islamisasi sekadar da'wah dan pelaksanaan Islam dalam diri dan masyarakat berbanding dengan barat. Ada pula yang melihat asas Islam sebagai wahana untuk kemajuan masyarakat Islam dan mencapai kemerdekaan dari halangan sejarah dan kesucian masa lampau supaya kemajuan saintifik dicapai dengan anggapan ia adalah idealis kepada Ummah. Berikutan itu, penulis mengemukakan pandangannya tentang asas Islam atau kefahaman Islam yang terperinci terkandug dalam empat elemen supaya setiap unsur mendapat kepentingannya dalam asas-asas tersebut.

Kata kunci: Psikologi, Islamisasi, Asas Islam, al-Balkhî.

مقدمة: من دواعي التأصيل

لا يشك عاقل في أنّ لعلم النفس الغربي تأثيراً كبيراً في تشكيل مفاهيم الدارسين ونظرتهم لأنفسهم ولبيئتهم ومستقبل حياتهم حتى أطلق بعض علماء الغرب تسمية للقرن العشرين بقرن علم النفس. وقال آخرون إن علم النفس هو الدين الجديد للغرب الأوروبي الذي حلّ محل الكنيسة وصار علماؤه بمثابة الكهنة والقساوسة في معابد العلمانية وعبادة الذات[1]. لذلك حرصت الدول التي تهتم بتنشئة شبابها على التمسك بقيم حضاراتها على تأسيس علمٍ للنفسِ يقوم على ركائز قيمها وفكرها أو إعادة صياغة مقررات علم النفس الغربي قبل أن تُدرّس في جامعاتها ومدارسها حتى لا تتعارض تلك المقررات التي تحمل بين طيّاتها قيم الحضارة الغربية ومفهومها للإنسان والكون والحياة مع مبادئها ومعتقداتها. ومن الأمثلة الواضحة لذلك ما نراه اليوم في مقررات الجامعات الدينية الكاثلوكية في الغرب وكتبها التي تقدم علم النفس من منظور دينها، وما كنّا نراه بالأمس في الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية في عهد ماوتسي تونغ من رفض لعلم النفس الغربي الذي يتهمونه بأنّه يصدر التحلل

[1] انظر في ذلك:

Vitz, Paul, *Psychology as a Religion: The Cult of Self Worship* (London: William Eerdmans Publishing, 1977).

الأخلاقي والفكر الرأسمالي.

ومن الطريف أن نذكر بهذه المناسبة أنّ علماء النفس في أوروبا وخاصة البريطانيين والفرنسيين قد تذمّروا من تأثير علم النفس الأمريكي في طلابهم. فقالوا بأنّ أمريكا قد هيمنت على هذا التخصص بالأعداد الهائلة للمتخصصين فيها وبما تنفقه على الأبحاث النفسية وبكتبها ومطبوعاتها الراقية وأفلامها الشيّقة حتى "تأمرْك" الخريجون من الجامعات الأوروبية. كما ذكروا أنْ معظم الدراسات الميدانية – خصوصًا في علم النفس الاجتماعي– تأتي من تطبيقات تجريبية على طلاب الجامعات الأمريكية فيتقبلها الدارسون في أوروبا خطأ على أنّها تمثل السلوك الإنساني بشكلٍ عام. كما انتقدوا الأمريكيين لمبالغتهم في تعميم الأبحاث التجريبية على الفئران والحمام لتشمل سلوك الإنسان. ويكفي القارئ الاطلاع على ما بعض بحوث هانز أيزنك للتعرف على بعض هذه الاعتراضات[1].

فإذا كان الروس والصينيّون قد رفضوا نقلَ العلوم النفسية الغربية حفاظًا على معتقداتهم الماركسية، وإذا كان الكاثوليك قد ابتدعوا علم نفس لا يتعارض مع فكرهم الديني، وحتى الأوروبيون أنفسهم خافوا على ضياع ثقافتهم القومية من التأثير الأمريكي مع أنّ الحضارة الغربية لا تختلف كثيراً بين ضفتي المحيط الأطلسي، فما بالنا نحن أساتذة علم النفس المسلمين نقدم لطلابنا فكر الحداثة الغربية العلماني مُنْدسا في نظريات علم النفس الغربي وتطبيقاته دون تحريف أو تأصيلٍ أو أسلمة. بل إنّ بعضنا ليصرّ على ترديد أفكارٍ قد تجاوزها أهلُها في الغرب، كأن يقولوا بأنّ علم النفس علم أصيل يقوم على المشاهدة الدقيقة كغيره من العلوم التجريبية، فليس للدين بزعمهم ولا للنواحي الأخلاقية دخل فيه، فهو كبقية العلوم أداة قد يستخدمها الإنسان للخير أو الشر، وإن ظهرت فيه اليوم بعضُ الجوانب غير المحددة فذلك لأنّه علمٌ حديث النشأة وليس كالفيزياء والكيمياء التي تمتد

[1] انظر:

Eysenck, H. J., "Cross-cultural psychology and the unification of psychology," *World Psychology*, Vol. 1, No. 4 (1995), pp. 11-30.

جذورها إلى حضارات اليونان وقدماء المصريين. مثل هذا القول لا يقول به إلا جاهلٌ بتخصصه النفسي وجاهل بالإسلام بوصفه منهجًا متكاملاً للحياة يصيغ كيان المؤمن من جميع النواحي المعرفية والعاطفية والروحية، فلا ينتفع بأكثر مما يأتي به علم النفس الغربي إذا لم تتم صياغته بالشكل الذي يتناغم مع شخصيته المسلمة، وهو جاهل بتخصصه النفسي لأنّ أهل هذا العلم في الغرب قد اعترفوا الآن بأنّ تخصصهم لا يملك القدرة على عالمية التطبيق لأنّه في الحقيقة علم غربي النزعة و المنشأ و ليس بعلمٍ تجريبيٍّ لا يتأثر بالبيئة التي نشأ فيها. بل إنّ العارفين منهم بحدود علمهم النفسي قد انتقدوا بحدّة أولئك الذين يدّرسون علم النفس الغربي في جامعات دول العالم الثالث دون تعديلٍ أو تغيير، واتهموهم بأنهم بتدريسهم دون تأصيل إنما يقومون بعملٍ غير أخلاقي، وبأنهم يؤدون دور العملاء لبث الفكر الغربي بين شباب بلدانهم. ألخص فيما يلي أهمّ ما جاء في إحدى الدراسات كتبها إثنان من كبار الأساتذة في المجال هما فضالي مقدم (من جامعة جورج تاون الأمريكية) وروم هاري من جامعة أكسفورد البريطانية).

يؤكد هذان العالمان أنّ أهمّ العوامل التي تؤثر في تشكيل علم النفس وتأثيره في أيّ قطر يعتمد على مكانة ذلك القطر العالمية بالنسبة لغيره من الأقطار، وأنّ فشل علم النفس الغربي في مساعدة الدول النامية فيما يُسمى بالعالم الثالث على حلّ مشاكلها هو بسبب هذا الفرق الشاسع بين هذه البلدان والدول الغربية. ومن ثم فإنّ التصدير الكُلّي للعلوم النفسية الغربية التي ليس لها مستوًى مقبول من الصدق والثبات حتى في بلدانها الأوروبية إلى هذه الدول باعتبارها معارف ثابتة هو عمل غير أخلاقي. إنّ أمريكا قد أصبحت الدولة المهيمنة على مجريات تطور العلوم النفسية في العالم دون منازع ومنظورها النفسي ودراساتها تصدّر إلى جميع أنحاء العالم دون محاولة للنظر في ملاءمتها لظروف البلدان النامية، كما تقوم أمريكا والدول الغربية بتدريب أساتذة علم النفس القادمين من العالم الثالث دون النظر في ملاءمة ما يدرسون لحاجة بلدانهم لهذه

العلوم النفسية الغربية مما يجعل الاستمرار على هذا النمط بمثابة الاستعمار الفكري الجديد لشباب هذه البلدان[1].

وفي ضوء ما سبق، نقوم في هذا البحث بتسليط الضوء على بعض الجوانب الأسياسية التي تحتاج إلى عناية خاصة في أي سعي لتحقيق أسلمة علم النفس وتأصيل قضاياه، كما نقف وقفات خاصة مع نموذج من علمائنا القدامى تبرز لديه الريادة العلمية في تناول بعض المسائل الحساسة في التعامل مع النفس الإنسانية التي لم تصبح محل اهتمام من علم النفس الحديث إلا منذ عقود قليلة، ذلكم هو الفيلسوف العالم أبو زيد البلخي (235-322هـ/849-934م) خاصة في المقالة الثانية من كتابه "مصالح الأبدان والأنفس".

التأصيل الإسلامي لعلم النفس: مفهومه والحاجة إليه

إنّ التأّصيل الإسلامي لعلم النفس – في رأينا – فرض على كل نفساني مسلم وأنّ من لا يهتمّ به فيدرس مادته من الكتب الغربية أو ترجمتها للعربية قد يكون آثما. وربما يتحمّل إثم من يضلون السبيل من طلابه بسبب تأثرهم بالفكر الغربي العلماني الذي قدّمه لهم كذباً على أنه علم ثابت وحقائق مطلقة. وتزداد المسؤولية كلما كان المدرس أكثر علمًا وقدرة علىً التأصيل. فحديث العهد بالتخرج بشهادته العليا ليس كمن وصل إلى درجة الأستاذية وتعمّق في كشف زيف كثير من نظريّات علم النفس وممارساته واطلع على الانتقادات وتضارب الأفكار بين علماء النفس الغربيين أنفسهم بما يساعده على الاجتهاد في إبراز محاسن علم النفس الإسلامي. والذي تخصص في علم النفس بعد أن نال درجته الأولى في الدراسات الإسلامية وأصول الدين ليس كمن لم تسعفه دراسته لمعرفة أصول دينه. والذي منحه الله تعالى منصبًا إداريًا يستطيع به أن يعيد صياغة المناهج أو أن يشحذ به همم الأساتذة ليس كمن اقتصر عمله على إلقاء المحاضرات.

---

[1] انظر:

Moghaddam, Fathali M. & Harré, Rom, "But is it science? Traditional and alternative approaches to the study of social behaviour," *World Psychology*, Vol. 1, No. 4 (1995), pp. 47-78.

ولكن ماذا نعني بالتأصيل الإسلامي أو ما اتُفِق على تسميته بمصطلح "الأسلمة"؟

إن "الأسلمة" من أكثر المفاهيم التي اختلف العلماء والمفكرون المعاصرون في تحديد معناها، فمنهم من يتحدث عنها بوصفه أسلوبًا حديثًا من أساليب الدعوة للإسلام ونشره، ومنهم من يقصر الأسلمة على التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية والإنسانية الغربية بأكملها، ومنهم من يعتبر الأسلمة مقصا كمقص الرقابة على الأفلام حيث يقوم "المؤسلم" بمراجعة مقررات الجامعة "فيقطع" منها كل ما يعارض الإسلام في نظره، حتى إن بعضهم في أحد الأقطار الإسلامية أوصى بحذف علم النفس بأكمله من مواد الدراسة الجامعية. وهناك طائفة أخرى تعمم هذا المفهوم بالحديث عن أسلمة المعرفة البشرية بكل أنواعها، بما في ذلك العلوم الشرعية الإسلامية، وذلك لكي لا تتعارض هذه المعارف مع التقدم الحضاري الحديث، ويمثل هذا الرأي بصورة عامة المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ولعل هذا التصور الأخير للأسلمة هو الذي أصاب هذا المفهوم بالغموض لاتساعه المفرط ولدعوته إلى إعمال العقل دون الاهتمام المناسب بما تمليه النصوص الشرعية الإسلامية ولنظرته لأهمية التقدم الحضاري وكأنه المطلب الأسمى للحياة، حتى قال بعض منتقديه إنّ هذا الاتجاه سوف يؤدي في نهاية الأمر إلى عَلْمَنة الإسلام بدلاً عن أسلمة العلمانية! لكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن هذا المعهد هو أول من سلك هذا الطريق المبارك، وهو الذي قدّم للأمة مئات الكتب والأسفار القيّمة، وكانت بدايته بمثابة الصحوة العلمية والفكرية للملتزمين بالإسلام من علماء الدراسات الاجتماعية.

ويبدو لنا أم من أهم الأسباب في قصور هذه المقاربة في أسلمة العلوم الغربية ذات الفلسفة الإلحادية بالشكل الذي نحبذه أنّها بدأت بالجوانب الفلسفية المجرّدة سعيًا بذلك إلى التوصل إلى نظرية شاملة للأسلمة تصبح بعد ذلك نموذجًا (paradigm) يتنزل من علياء التجريد إلى واقع أسلمة التخصصات الاجتماعية والإنسانية الغربية كعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرهما. وعلى الرغم مما يبدو للدارس من وجاهة منطقية هذا الاتجاه من المجّرد إلى المحسوس، إلاّ أنّ واقع الأمة الإسلامية وطبيعة العلوم الاجتماعية

الغربية نفسها يدعواننا إلى العمل على عكس هذا التصور. فأساتذة هذه العلوم في جامعاتنا قد تعوّدوا منذ نعومة أظفارهم على التلقي والحفظ والاعتماد على الكتاب المدرسي، ثم الكتاب الجامعي. فلو أن الجهود بذلت منذ بداية هذه الصحوة الأكاديمية قبل ثلاثين سنة في سبيل وضع كتب جامعية من منظورٍ إسلامي في العلوم المحددة وتوزيعها على جامعات العالم الإسلامي بعد ترجمتها إلى اللغات المختلفة، لوجدنا أنفسنا اليوم أمام أجيالٍ من العلماء الشباب المسلمين المؤمنين بهذا التأصيل الإسلامي لتخصصاتهم ولوجدناهم قد قاموا بتحديث الكتب التي درسوها وإعادة صياغتها للأجيال القادمة، ولاستطعنا إن اقتضى الأمر تجنيدهم لبناء فكر فلسفيٍّ إسلاميٍّ أصيل قد يصل بنا إلى تلك النظرية الشاملة المنشودة.

وفي حقيقة الأمر يجب على المرء أن يتساءل عن جدوى تكوين إطار شاملٍ لأسلمة علوم ليس لها مثل هذه النظرية الشاملة! فليس للعلوم الاجتماعية إطار شامل (paradigm) يسعى لتفسير جميع نظريّاتها وممارساتها مثل ما تفعل النسبية في علم الفيزياء وما كانت تفعله نظريّات نيوتن من قبلها. فعندما جاء آينشتاين بنظرية النسبية حدث انقلاب شامل في تصورات الفيزيائيين واتخذ علم الفيزياء مساراً جديدا. أمّا العلوم الاجتماعية، فليس لها مثل هذا الإطار العام الذي يقلب المفاهيم والتصورات إذا حلّت نظرية شاملة جديدة مكان نظرية قديمة. وإذًا يمكن القول بشكلٍ عام إنّ النظريّات والممارسات في علوم النفس والاجتماع لا تتبدل بشكل انقلابي حتى لو ثبت فشلها فيما ادعت أنها تنجح في فعله، وإنما يتم تحديثها وتبقى جنباً إلى جنب مع النظريّات و الممارسات الأكثر نجاحا. فمثلاً لقد ثبت فشل نظريّات فرويد التحليلية وتطبيقاتها في العلاج النفسي، ولكنّها مع ذلك تدرس للطلاب ولها معاهدها الخاصة والمتحمسون لها من النفسانيين. لذلك لا يجدي الاتجاه من سماء التجريد إلى أرض الواقع الملموس لعلوم اجتماعية وإنسانية غربية ليس لديها من الأمور الثابتة غير تصورها المادي العلماني الداروينيي للإنسان ومحاولاتها اللاهثة لمحاكاة العلوم التجريبية الدقيقة. لذلك فقد رأيت أن أقدم في هذا البحث تصوري المتكامل لأسلمة

علم النفس وصياغة مقرراته الجامعية، أركز فيه على المسائل المهمّة مجتنبًا المغالاة والمبالغة في التنظير مع تقديم أمثلةٍ عملية للتأصيل.

الأسلمة والتأصيل في علم النفس: المجالات والعناصر

يشمل تصورنا لتحقيق الإسلامة والتأصيل في تدريس علم النفس بجامعات العالم الإسلامي أربعة مجالات أو عناصر بحيث يؤدي كل عنصرٍ منها مهمته حسب أهميته في ذاته ومن حيث تكامله مع العناصر الأخرى لكي تتحقق عملية التأصيل والأسلمة في شمولها لأهم الجوانب المتعلقة بعلم النفس. وتمثل تلك المجالات فيما يلي:

أولاً: الأسلمة لكشف الجوانب العلمانية في علم النفس الغربي وتصوراتها الكفرية لطبيعة الإنسان التي لا يسندها العلم التجريبي الحديث.

ثانيا: أسلمة علم النفس لإظهار الإعجاز في خلق الله تعالى للإنسان من النواحي الجسمية والنفسية والروحية. ويكون ذلك دعوةً للطلاب ليتفكروا في خلق الله فيزدادوا إيمانا.

ثالثًا: الأسلمة لإثبات حقيقة أنّه بدون تأصيلٍ إسلامي قد تصبح أغلب ممارسات علم النفس الغربي التطبيقي قليلة الفائدة، بل في بعض الأحيان عديمة الفائدة، أو حتى قد تحدث بعض الأضرار على العملاء المسلمين اللاجئين للمتخصصين النفسانيين للعلاج أو الاستشارات.

رابعًا: الأسلمة بإعادة كتابة تاريخ علم النفس من منظور إسلامي حتى يتعرف الطلاب على إسهامات علمائنا وأطبائنا القدامى ويكتشفوا تزوير الكتاب الغربيين الذين أهملوا إسهامات علماء المسلمين عن قصدٍ وتعصبٍ أو عن جهلٍ فاضح.

ونقدم فيما يأتي بيانًا وشرحًا لتلك المجالات وما تتطلبه عملية التأصيل والأسلمة في كل منها.

1. كشف الجوانب العلمانية والتصور المنحرف لطبيعة الإنسان في نظريّات علم النفس الغربي وتطبيقاته

هناك الكثير من أساتذة علم النفس يقررون لطلابهم أنّ الإنسان تتشكل طبيعته فقط بما

يتعرض له في بيئته، أو أنّه من المهد إلى القبر عبد لدوافع ذاته الدنيا الجنسية والعدوانية فإمّا أن يستجيب لها بطبيعته الفطرية أو يخدع نفسه بنفسه ويستجيب لها بطريقة غير مباشرة بآليات (ميكانيزمات) الدفاع أو بالرمزية في أفعاله اللاشعورية وفي رؤاه المنامية، وهم يفعلون ذلك على الرغم من قراءتهم للقرآن الكريم وفهمهم لمعانيه ورغم إلمامهم بالحديث الشريف. وإنّي لأعجب من مرشد نفسي يعترف له زبونُه بفعل الفاحشة وعقوق الوالدين والإلحاد وهو لا يحرك ساكنًا، ظنا منه بأنه يمارس "العلم" الإرشادي النفسي الذي يأمره بعدم التدخل في الجوانب الأخلاقية لعملائه ولا يدري أنّ العلماء في الغرب بدأوا يتراجعون عن هذا الحياد الأخلاقي. أين الآيات القرءانية الكثيرة التي تخبرنا عن الروح التي نفخها الله تعالى في طينتنا التي خلقنا منها وأين روحانية النفس الإنسانية وأين ذهبت الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها وأين الحديث الشريف الذي يخبرنا بأنّ كل مولود يولد على الفطرة التي تقوده إلى توحيد الله وعبادته، ولكن الآباء هم الذين يطمسون هذه الفطرة.

لذلك كان هذا الميدان من الأسلمة هو أهمّها وأخطرها؛ لأنّ عدم الأسلمة قد يشوش على عقيدة الطالب وفهمه لدينه. فعندما يهاجم الكتّاب المسلمون حداثة الغرب وحضارته المعاصرة فأنهم يركزون على التفسخ الأخلاقي والفوضى الجنسية واللواط والربا وغيره من السلوك الذي يأباه الإسلام. لكن هذه المسائل على الرغم من بشاعتها ليست إلاّ نتيجة طبيعية للعلمانية اللادينية، ولنسيانهم لخالقهم الذي أنساهم أنفسهم فانغمسوا في شهواتهم: الزنا واللواط وشرب الخمر أخفّ وطأةً من الشرك وسوء الظنّ بالله تعالى والشكّ في عدله ورحمته وفي صدق شريعته وأحكامه، قال عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: 48). لذلك فقد خصصنا جزءً كبيراً من هذا البحث لهذا الموضوع الخطير.

إنّ المقررات التي تختلط على الطلاب فيها فروع علم النفس الغربي التي تسندها الأبحاث التجريبية كدراسة الإحساس والإدراك الحسّي وزمن الرجع والأسباب الوراثية للإصابة بالتخلف العقلي مع تلك التي لا تقوم إلا على تصورٍ مشوّهٍ للإنسان ونظريّات

مُلفّقة تخدم هذا التصوّر العلماني ستكون عاقبتها وخيمة على عقيدة الطالب وفهمه للإسلام. وهذا لعمري أسوأ ما نقدمه لشبابنا! فالطالب الذي يقرأ لما قاله فرويد ويستمع إلى محاضرة أستاذٍ يؤكد فيها أنّ التحليل النفسي قد أثبت أنّ الكبت وحتى الكظم الجنسي سوف يؤدي بصاحبه إلى المرض النفسي وهو قد امتنع عن الزنا رغم إلحاح الشهوة عليه من أجل تحريم الإسلام له سوف يجد نفسه في صراعٍ بين تحريم الإسلام وما يظن خطأً أنّ "العلم الحديث" قد أثبته. وقد يأتي هذا الشك حتى من تلك الفروع التي يظنّ السذج من الدارسين بأنها علم تجريبي. فالطالب في مادة علم النفس الفسيولوجي أو علم النفس الوراثي الذي يقرأ المراجع الغربية التي تقول زوراً وبهتاناً إنّ هناك أدلةً علمية على أنّ للشذوذ الجنسي واللواط أسسًا وراثية في الجينات والهورمونات قد يؤدي به ذلك للشك في العدل الإلهي: فكيف يخلق الله تعالى في إنسانٍ جينات ومورثات واختلال في هورموناته تؤدي به حتمًا إلى الشذوذ الجنسي ثمّ يعاقبه أشدّ العقاب على سلوكه الجنسي؟!

إنّ هذا التفريق بين شقي علم النفس: ذلك الذي تسنده الأبحاث التجريبية غير المنحازة وذلك القائم على جُرُفٍ هارٍ، لهو أمر عصيّ حتى على بعض الأساتذة الذين يقدمون لطلابهم مواد قد اختلط فيها "الحابل بالنابل" كما يقولون. ذلك لأنّ علم النفس الغربي تخصص فريد، فهو ليس كالعلوم الاجتماعية ذات الطبيعة المحددة كالتاريخ مثلاً الذي تسهل أسلمته وليس بالعلم التجريبي الدقيق الذي يمكن تصديره كما تُصَدر الفيزياء والرياضيات البحتة دون خوفٍ على المساس بفكر الطلاب الإسلامي، بل إنّ النظرة الثاقبة لعلم النفس الغربي الحديث لتدعونا إلى الاقتناع بأنّه ليس بعلم ذي طبيعةٍ واحدة. فهناك الجوانب التي امتزج فيها علم النفس بالدراسات العلمية التجريبية البحتة من مثل علم النفس الفسيولوجي والسيكوفيزياء ودراسات الإدراك الحسّي وعلم النفس الإحصائي، فهذه الطائفة من الدراسات لا تمثل إلا قطاعًا ضيقًا بين علم النفس وتلك العلوم التجريبية والإحصائية الدقيقة، فهو بمثابة الأرض المحايدة أو ما يطلق عليه بالانجليزية no man's land، فهذه قد لا تحتاج إلى كثير تأصيل أو تغيير ولا تعتمد كثيراً

على تصورات غربية إلحادية لطبيعة الإنسان ودوره في هذه الحياة.

إذن فالجوانب العلمية الدقيقة في علم النفس ما هي إلاّ شريط ضيّق بينه وبين علومٍ تجريبية دقيقية ولكن ما تبقى من الكم الهائل لهذا التخصص لا يعدو في كثيرٍ من جوانبه أن يكون نظريّات وتطبيقات لفكر الحداثة الغربية وتصوراتها المنحرفة لطبيعة الإنسان وعلمانيتها القائمة على إنكار وجود الخالق عزّو جلّ أو سلبه من هيمنته على عبيده من البشر حتى أمسى لديهم وكأنّه إله أرسطو الذي خلق العالم وتركه يفعل ما يشاء لأنّه مشغول بالتأمل في جماله! ففي حضارة الغرب المعاصرة لا تجد فرقًا ظاهرًا في السلوك العملي لمن يقول بأنّه يؤمن بالله ومن يقول أنّه من الملحدين. فالكلُ قد منح الإنسان الحرية الكاملة ليفعل ما يشاء إذا لم يقم بمخالفة قانون ابتدعه الإنسان. والكل قد أعطى الحفنة الحاكمة بأغلبية أعضاء البرلمانات السلطة التشريعية التي تقرر للمجتمع بأسره ما هو "حلال" وما هو "حرام" دون الالتفات إلى أخلاقٍ موروثةٍ أو بقيةٍ من وحي السماء. فتبيح الزنا وشرب المسكرات والإجهاض وقتل الرحمة لمرضى السرطان والأمراض التي لا علاج لها وتأجير الأرحام وتغيير خلق الله وكل ما اشتهت أنفسهم فإلههم هواهم. هذه البيئة الاجتماعية والخلقية الغربية هي التي تغذي الفكر النفسي لدى علماء الغرب وهي المساحة الغالبة التي تحتاج إلى أسلمةٍ وتأصيل وتوطين من قبل أن تصبح جزءًا من مناهج جامعاتنا. فهذه المساحة هي التي تنبثق منها نظريّات علم النفس الغربي وممارساته، وهي التي تقوم على أسس الفلسفات العلمانية القديمة.

لذلك كان لزاماً على واضعي مقررات علم النفس وأساتذته أن يوضحوا الفروق بين ما هو علمي وما هو ادعاء للعلمية، وبين ما يستند إلى إثباتٍ تجريبي حقيقي وما يقوم على الفلسفة الوضعية وأهواء الرجال. ومن الضروري أن يكون ذلك توضيحًا لا لبس فيه حتى تتكوّن لدى الطالب ملكة الفرقان ويتدرب على نقد المواد النفسية ويسمو بنفسه عن قبول كلما هو مطبوع في كتابٍ قام بتأليفه عالم لم يدخل لإيمان في قلبه. ويجب أن

يوضح للدارسين أنّ ما يقرره أساطين علم النفس الغربي من مناهج أو مدارس نفسية لا تستند إلا على تصوراتهم الخاصة عن طبيعة الإنسان. وهذا التصورٍ لطبيعة الإنسان لكل مؤسسٍ لمنهجٍ من المناهج يصبح حجر الزاوية لنظريّاته وممارساته العملية.

يجب على أساتذتنا أن يوضحوا لطلابهم أنّ فرويد وروجرز وواطسن وغيرهم من أصحاب المناهج والمدارس النفسية لم يدخلوا في مختبرات تجريبية قاموا فيها بشتى التجارب العلمية ليخرجوا لنا باكتشافات محددة عن طبيعة الإنسان. فما يقدمونه لنا في هذا الموضوع لا يعدو أن يكون من بنات أفكارهم ومن تأثير حضارتهم وحتى من تأثير حياتهم الشخصية وتربية آبائهم لهم ومن مشاكلهم النفسية. مثلاً، ما الإنسان في نظر فرويد؟ إنّ الإنسان، كما قرر مؤسس التحليل النفسي عام 1917م، بطبعه أناني تتحكم فيه غرائزُه الجنسية والعدوانية اللاواعية، وطبيعته الحقيقية لا تظهر إلا بعد أن يصاب بمرض الاكتئاب، ذلك المرض الذي يشعر فيه المريض بأنّه مثقل بالذنوب، وبأنّه لا يستحق ما يقدمه له أهله من عون[1]. لماذا رسم فرويد هذه الصورة المتشائمة عن الإنسان؟ لأنّه كان منذ صغره يكره الأوروبيين في النمسا لكراهيتهم لليهود واحتقارهم لهم. فكره ذلك المجتمع وكره دينه ووجد في اضمحلال الكنيسة وضيق الناس بها فرصته في الإتيان بنظرية نفسية متكاملة تهز أركان الكاثوليكية وتفتح أبواب اللذة المحرّمة لشعوبٍ ضاقت ذرعاً بالكبت الكنسي وطغيانه ومحاربته للعلماء وإعدامه لآلاف النساء في محاكم التفتيش. فاستنتج من تصوره لطبيعة الإنسان ذلك الصراع الدائم بين الذات Ego والذات الدنيا الحيوانية id والذات العليا Superego الذي لا يهدأ من مهد الإنسان إلى قبره. وكل نشاط يقوم به هونشاط مدفوع بغريزة جنسية أو عدوانية واضحة أو مغلفة تاتي من لاشعوره.

وبتأكيده على هذه الطبيعة الحيوانية للإنسان قلب فرويد العقيدة المسيحية رأسًا على

---

[1] انظر في ذلك:

Burns, David D., *Feeling Good: The Mood Therapy* (New York: New American Library, 1980), pp. 52-54.

عقب. ففي المسيحية يولد الإنسان وارثاً لخطيئة آدم الأولى ويسعى لعمل الخير والاستغفار والندم على ما فات و ينظر إلى الجنس وكأنّه رأس الخطيئة. فجاء فرويد ليقول للناس أنتم بفطرتكم أنانيون تدفعكم نزواتكم الجنسية والعدوانية وليس هناك سبيل لتغيير هذه الطبيعة. فإذا انغمستم في أعمال جنسية فأنتم في ذلك تستجيبون لطبيعتكم الحيوانية وإن أبيتم فإنما تخدعون أنفسكم بما وُهِبتم من مكنزمات الوسائل الدفاعية التي تقدم الجنس بطرق ملتوية. لذلك يعتبر فرويد الأب الحقيقي للثورة الجنسية المعاصرة. إذا أدرك الطلاب الظروف والملابسات التي أتت بالتحليل النفسي وجعلته أكثر الأفكار تأثيراً في الغرب في حينه، فإنهم لن يتقبلوا الكلام عن عقدة أوديب وحسد القضيب وما شابهه من أفكار فرويد الجنسية إلاّ بالنقد والاستخفاف حتى لو أتى من أساتذتهم.

ومما يؤسف له أنّ روّاد علم النفس من أساتذتنا – خصوصًا في بعض بلدان الشمال الإفريقي – ما زالوا يفسرون لمرضاهم وزبائنهم أسباب إصابتهم بالاضطرابات النفسية ويشرحون منهاج علاجهم على أساس مفاهيم التحليل النفسي الفرويدي كالكبت الجنسي وميكانزمات الدفاع عن الذات والطرح والعقد اللاشعورية، كما يستخدمون أساليب فرويد في تحليل الأحلام، وكأنّ سلوك الإنسان ونشاطه الذهنى حكر على الدوافع اللاشعورية الجنسية و العدوانية. فكأنهم ينظرون إلى الفكر الفرويدي بوصفه علماً لا يأتيه باطل الشك من بين يديه ولا من خلفه. اقرأ إن شئت ما سطرته أقلام أكابر علمائنا من أمثال مصطفى زيور ومحمود الزيادي وصلاح مخيمر، وكلهم كانوا من روّاد علم النفس في العالم العربي. ولا يدري طلاب هؤلاء الروّاد أنّ الدراسات الغربية الحديثة قد كشفت أنّ فرويد عندما كتب نظريّاته الجنسية الفجّة كان يسطّرها وهو واقع تحت تأثير إدمانه على الكوكايين، واقرأ إن شئت ما كتبته إليزابيث ثورنتن في هذا الصدد[1].

[1] انظر في ذلك:

Thornton, Elizabeth M., *Freud and Cocaine: The Freudian Fallacy* (London: Blond & Briggs Publishers, 1983).

أما الأخصائيون في ميدان الإرشاد النفسي والتوجيه فيركزون على نظريّات Carl Rogers العلماني وفكر من شايعه في تشجيع عملائهم على تحقيق تطلعاتهم وآمالهم دون ذكر الجوانب الروحية والدينية أو الأخلاقية والاستفادة منها؛ لأن مؤسس هذه المدرسة العلاجية قد بناها على هدي الفلسفة الوجودية existentialism والإنسانية العلمانية secular humanism، وكلتا الفلسفتين تدعوان إلى حرية الفرد المطلقة ولتحفيز جهده للوصول إلى معنًى لحياته أو لتحقيق ذاته بدون قيود أخلاقية موروثة أو وازعٍ ديني. بل إنّهم قدحرّموا على المعالج النفسي الحديث عن الدين والتدين مع عملائه، فتبعهم في ذلك اساتذة المرشدين النفسيين المسلمين. فكنّا نسمع من أساتذتنا تأكيدهم المتكرر لنا بأنّ الإرشاد النفسي أسلوب حيادي neutral and nonjudgmental ليس للدين والأخلاق مكانة فيه، فكانوا وما زالوا يحذرون طلابهم من المساس بأفكار عملائهم ومعتقداتهم الدينية حتى وإن كانت منحرفة ومحرّفة وكأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى بالوسائل اللطيفة أضحى من المحرمات. كذلك يحذر الدارس للإرشاد النفسي من إبداء أيّ رأي أخلاقي إذا اختار العميل أن يحقق ذاته بعمل غير أخلاقي كأن يختار العمل بوصفه مصوراً أو مخرجًا لأفلام الجنس الفاضحة ولا يتدخل المرشد النفسي بالنصح إلاّ إذا أراد العميل أن يحقق طموحاته بعمل مخالف للقانون الغربي، فإن أراد التخصص في فن السرقة والنشل أو فنون القتل والنهب، فعند ذلك يتدخل المعالج. ولا يدري متخصصو المسلمين من قوم تبّع أنّ هذه المدرسة هي التي مهدت للغرب في انتشار ثورته الجنسية المعاصرة وانحلاله الذي فاق ما كان عليه الرومان من تفسخ وأنّ اقتفاء آثارهم سوف يعطي الشباب المسلم المبررات الأخلاقية ليفعلوا ما يشاؤون.

دعا فرويد إلى تأكيد تصوره عن أنانية الإنسان وعدوانيته لإبطال النفوذ الديني الذي كان له بقية من تأثيرٍ في زمنه، ولكنّ أصحاب الفكر الإنساني مثل روجرز ومازلو قد جاؤوا بعده بفترةٍ طويلةٍ فوجدوا المجتمعات الأوروبية قد تحررت كثيراً من الدين وما يدعو له من أخلاق بفضل الحداثة لذا فقد تبنوا فكر الإنسانية العلمانية والحرية المترفة والمثل الديمقراطية فتوّجوا الإنسان الغربي ملكًا على نفسه ومجتمعه وتمتع بكل السلطات التي كانت للكنيسة.

وبالرغم من قولهم إنّ الإنسان خيّر بطبيعته، إلا أنّ هذا الخير المزعوم لا علاقة له بأيّ فكرٍ أخلاقيٍّ أو دين. فيمكن إقناع العميل الذي يطلب العلاج الإنساني بأن يحقق ذاته بأن يكون مُلحدًا "صالحًا"، أو شاذا جنسيا ملتزما. يجب أن يكون مثل هذا النقد للفكر الإنساني للمرشدين النفسيين المسلمين واضحًا وقويًا حتى لا ينزلقوا في أفكار قوم تُبّع.

كذلك يجب على واضعي المقررات الجامعية أن ينبهوا الطلاب إلى الخلفية الفلسفيّة للمدرسة السلوكية (Behaviorism) التي بنت فكرها على فلسفة الإمبيريقيين البريطانيين (British Empiricists) التي ترجع جذورها إلى الفيلسوف الإغريقي أرسطو. هذه الفلسفة التي ازدهرت في القرن السابع عشر والثامن عشر والتي كان الفيلسوف John Locke من أهمّ مؤسسيها تؤمن بأنّه ليس للإنسان طبيعة موروثة فهو يولد مثل اللوح ألأبيض والبيئة هي التي تسطّر ما يحلو لها من خبرات فتتشكل شخصية الفرد بما يحدث له وما يتعلمه عن طريق الارتباط (association). وبهذه الخلفية الفلسفية الماديّة المناقضة للأديان جاءت بعدها السلوكية بثورة عارمة غايتها أن تجعل علم النفس تخصصًا علميا تجريبيا فيلتحق بالعلوم الدقيقة كالفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء فسخرت من نظريات التحليل النفسي وتركيزها على اللاشعور ودوافعه الجنسية والعدوانية واستبدلت إله اللاشعور الفرويدي هذا بإله البيئة والتعلم لأنّ البيئة كما يعتقدون هي العامل الوحيد في صياغة الشخص، وما الدين والعقائد ومحبة الأوطان والآباء إلاّ أوهام تكونت بسبب ما تقدمه البيئة والحضارة من ثواب وعقاب أو ما يسمونه من تدعيم إيجابي أو سلبي (positive and negative reinforcements) وما الإنسان في نظرهم إذن إلاّ كورقة جافة سقطت من شجرة تهب بها رياح البيئة لتحملها إلى حيث شاءت فلا مكان لوحي أو دين أو حقيقة ثابتة. فليس في فكر السلوكيين أيّ احترام لحقيقة روحية، وعلى الطلاب أن يدرسوا في مقرراتهم أنّ السلوكية في علمانيتها لا تختلف عن الفرويدية ولا عن إنسانية روجرز إلاّ من حيث طريقتها في إنكار الحقائق الدينية والروحية، وكل الطرق تؤدي إلى روما، كما يقول المثل المعروف.

فالإنسان في نظر السولوكيين مثل ماكينة تأتي بالاستجابات لمثيرات البيئة، فتركيزهم على ما

يمكن قياسه من المثيرات واستجاباتها الظاهرة التي يمكن مشاهدتها بالحواس. أما ما يسبق الاستجابة من فطرةٍ ثابتة للإنسان أو سلوك داخلي ومشاعر وفكر فلا مكان له في النظريات والممارسات السلوكية البحتة. ويطلقون على هذه النشاطات الداخلية المعرفية اصطلاح "الصندوق الأسود" (black box) الذي لا يمكن معرفته ولا يخضع للعلم؛ لأننا لا نستطيع أن نخضعه للمشاهدة المباشرة بالحواس، فهو إذن خارج نطاق علم النفس العلمي (scientific psychology). وانطلاقًا من هذا الغلو أنكروا وجود العقل كما أنكروا وجود الروح من قبل، ثم استخفوا بوجود الشعور (consciousness) لدى الإنسان. وهيمن منظور المدرسة السلوكية لنصف قرن من الزمان على علم النفس بكل فروعه، ووجد دفعةً قويةً من نجاح أساليب علاجه للمخاوف المرضية (phobias) والاضطرابات البسيطة التى يمكن وضعها في قالب المثير والاستجابة كالخوف من الأماكن العالية أو الخوف من المواقف الاجتماعية الضاغطة أو العجز الجنسي.

فبعد أن كان المرضى يقضون السنين الطوال في علاج خوفهم المرضي من الحشرات أو ركوب الطائرات أو عجزهم الجنسي بالتحليل النفسي الذي ظل يوهمهم بأنّ الاسباب الحقيقية لأمراضهم تقبع في ظلمات لاشعورهم وأنّه لا سبيل لعلاجهم إلاّ باستخراج عقدهم بمساعدة المحلل من اللاشعور إلى الوعي، تمكن هؤلاء من التخلص من أعراضهم بعد أسابيع قليلة من العلاج السلوكي الذي يعتمد على التعلم الشرطي البافلوفي والإسكنيري والذي لا يرى سببًا لربط الأعراض النفسية باللاوعي أو بأمور رمزية فيعالجها بشكل مباشر. فالعرض النفسي عند مؤسسي العلاج السلوكي من مثل هانز أيزنك Eysenck وجوزيف وُولبي Wolpe وأدولف ميير Meyer ليس إلاّ استجابة شرطية (conditioned response) تعلمها المريض، ويمكن التخلص منها بتعلم مضاد بالعلاج المباشر للأعراض، فالعرض هو المرض[1]. ولا شك أن هذا الاعتقاد المبسط قد يكون مقبولاً بالنسبة لبعض الاضطرابات الاستجابية البسيطة، لكن تعميمه على

[1] انظر في ذلك مثلاً:

Eysenk, H. J., *The Scientific Study of Personality* (Westport, Connecticut: Greenwood Press, 1982); Wolpe, Joseph, *The Practice of Behavioral Therapy*, (New York: Pergamon Press Ltd., 1969); Lamb, S. D., *Pathologist of the Mind: Adolf Meyer and the Origins of American Psychiatry* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2014).

هذا النحو فيه غلو وتطرف.

ولقد قيّض الله لي لقاء هؤلاء الرواد، وتعلمت منهم أساليب علاجهم، ولكنني كنت أؤكد لهم أنّ الإنسان ليس كالجهاز الأوتوماتيكي لشراء البيبسي كولا يقوم فقط بالاستجابات لمثيرات خارجية. ووضحت ذلك في بحث نشر في الولايات المتحدة الأمريكية قبل أكثر من أربعين سنة[1]، واعتبره كثير من النفسانيين – وفي مقدمتهم Meyer - واحدةً من أوائل المحاولات لنقل العلاج النفسي من السلوكية المتطرفة إلى العلاج المعرفي. وكانت بريطانيا هي الرائدة في تأصيل العلاج السلوكي، فهرع الأخصائيون من أمريكا وأوروبا لتعلم العلاج السلوكي. ولكن النفسانيين العرب والمسلمين كانوا بطيئين في ذلك، ورفض كثير منهم التخلي عن التحليل النفسي. ثم استجابوا بعد ذلك، ولكن بنفس أسلوب التقبل الكامل الذي لا ينظر إلى الجذور الفلسفية والعقائدية والفكرية للمدرسة السلوكية وموقفها العلماني المناقض للأديان وإلى أهمية الناحية الروحية للإنسان[2].

إذن يجب على أساتذة علم النفس وواضعي المقررات الجامعية أن يوضحوا للطلاب الفرق بين استخدام تقنيّات العلاج السلوكي التي تعتمد على الثواب والعقاب المرتبط بالتدرج في مواجهة المواقف الضاغطة ونجاحها في هذا الشأن والخلفية الفلسفية لهذا الأسلوب من العلاج. فليس لهذه الفلسفة العلمانية أيّ دخلٍ في نجاح تطبيق هذا النوع من العلاج. وهو في الحقيقة ما يقوم به الناس منذ أن خلق الله البشر ليعيشوا في مجتمعاتهم ويساعدوا أصحاب المشاكل المشابهة أو في التدريب على النشاطات العملية. وقد نجح علمؤنا وأطباؤنا القدامى في هذا الميدان العلاجي رغم كراهيتهم للكفر والعصيان.

---

[1] انظر:

Badri, Malik, "A New Technique for the Systematic Desensitization of Pervasive Anxiety and Phobic Reactions," *The Journal of Psychology*. No. 65 (1967), pp. 201-208.

[2] بدري، مالك، "الآثار السلبية لخضوع النفسانيين المعاصرين للفكر النفسي العلماني الحديث وإعراضهم عن إسهامات علماء التراث الإسلامي وعلاجهم الدنيوي والديني"، **التجديد**، المجلد الثاني عشر، العدد الثالث والعشرون، 2008.

وعلى الرغم من نجاح السلوكية في علاج الخوف المرضي وما شابهه من اضطرابات بسيطة، إلا أنه قد ظهر فشلها في علاج المشاكل التي تنبع من التصورات الخاطئة للمريض عن نفسه وبيئته مثل الاكتئاب، أي المشاكل المعقدة التي تأتي من عمق فكر الشخص واتجاهاته وانفعالاته الداخلية وشعوره، تلك الأفكار التي لا يمكن صياغتها في نموذج المثير والاستجابة السطحي، أي تلك الاضطرابات التي تأتي من "الصندوق الأسود" الذي رفضه السلوكيون، فجاءت الثورة المعرفية لترجع لعلم النفس شعوره وعقله وتؤكد على أنّ الاستجابات لا تأتي تلقائياً إلاّ في حالات الأفغال المنعكسة (reflexes) أو البسيطة المتكرره. أمّا المسائل التى تحرك كيان الشخص الداخلى وشخصيته فتحتاج إلى دراسة أفكارالفرد وانفعالاته وخبراته السابقة وتصوره عن نفسه وعن حديثه الخفي مع نفسه؛ لذلك ندعو واضعي مقررات علم النفس إلى إظهار عيوب هذه المدارس النفسية وطرقها المختلفة في ترسيخ العلمانية، والحرص على توعية شبابنا وتقوية عزائمهم حتى لا يتأثروا بهذا الفكر الوافد. وأخيراً، فإنّ الحكمة ضالّة المؤمن، أنى وجدها فهو أحقّ الناس بها، لذلك وجب على الساعين للتأصيل الإسلامي الاستفادة من الكتب التي ألّفها علماء النفس من القساوسة والفلاسفة وأساتذة الجامعات المسيحيّين، فهم رغم انحراف عقيدتهم الثالوثية أكثر معرفة بضلالات العلمانيين من بني جلدتهم و أشدّ حقدًا عليها[1].

2. أسلمة علم النفس لإظهار الإعجاز في خلق الله تعالى للإنسان من النواحي الجسمية والنفسية والروحية

هذا الجانب من الأسلمة هو أهمها؛ لأنه يهدف إلى تقوية إيمان الطلبة بالله تعالى وبإبراز الحكمة الإلهية في شرع العبادة واتباع تعاليم الدين الحنيف. ولعلّ من أوضح الأمور تحريم

[1] ومن أهمّها الكتب الآتية:

Browning, Don S., *Religious Thought and the Modern Psychologies:* A Critical Conversation in Theology of Culture (Minneapolis: Fortress Press, 1987); McMinn, Mark R. & Philips, Timothy R. (ed.), *Care for the Soul: Exploring the Intersection between Psychology and Theology* (Westmont, IL: IVP Academic Press, 2001); Young, Caroline, *Spirituality, Health, and healing* (Boston: Jones and Bartlett Publishers, 2005).

الإسلام لجميع أشكال الممارسات التي يشكو منها الغرب والشرق والتي فشلت كل محاولات القضاء عليها. فالإسلام قد حرّم تناول المسكرات والمخدرات والزنا واللواط والربا. يقول الأمريكيون إنّ الأضرار التي تحدثها الخمر فاقت تلك التي تأتي من جميع المخدرات مجتمعة. وأمّا الزنا واللواط فيكفي ما سببه من وباء الإيدز الذي حصد الملايين من البشر. وأمّا الربا فيكفي ما أحدثه الآن من انهيار البنوك والإفلاس الجماعي للشركات والانكماش الاقتصادي لدول الغرب. كذلك، فإنّ البرهان لساطع على فشل علم النفس الغربي الذي رفض الإيمان بالله وأنكر وجود الروح و"حَيْوَنَ" الإنسان وملكّه مقاليد السلطة الأخلاقية، قد فشل فشلاً ذريعًاً في حلّ مشاكل الغربيين أو حتى التخفيف من حدّتها. فالرسم البياني للاضطرابات النفسية والعقلية والطلاق والانتحار والإدمان هو الرسم البياني الوحيد الذي فاق التردي الاقتصادي.

من ناحيةٍ أخرى يجد الطالب تأييدًا لإسلامه مما آل إليه علم النفس الغربي من التخلى عن فرودية التحليل النفسي والسلوكية المتطرّفة وفكرها المادي الذي أنكر العقل واستخفّ بالشعور وبالتفكيرالذي لا يخضع لتصور المثير والاستجابة. فجاءت الثورة المعرفية لتعيد لعلم النفس الغربي بعضًا من اتزانه حيث أعادت له "عقله" و"شعوره" فأفاق من لوثة الجنس الفرويدي والتصور الآلي للسلوكية. فلم يعد لفرويد في كثيرٍ من جامعات الغرب من ذكر إلاّ في تاريخ علم النفس الحديث وفي مكانته بوصفه مفكرًا وفيلسوفًا. أما السلوكية وعلاجها فقد حُصِرت في نطاق علاج الاضطرابات البسيطة التي يمكن وضعها في قالب المثير والاستجابة. لكنّ المشاكل المعقدة التي يسببها تصور الإنسان وتفكيره المتشائم عن نفسه وبيئته هو الذي يؤدي به إلى القلق والاكتئاب. فقد نجح العلاج المعرفي في علاج هذه الاضطرابات بالإضافة إلى نجاحه في علاج تلك الأمراض التي كانت حكرًا على العلاج السلوكي لذلك هيمن الفكر المعرفي الآن على العلاج النفسي بشكلٍ واضح. ومن مزايا هذا الإتجاه الحديث أنّه بتركيزه على فكر الشخص ومعتقداته قد فتح المجال واسعًا لأهمية النواحي

الروحية والدينية لأفراد المجتمعات غير الأوروبية. لكنه على كل الأحوال ما زال علمًا غربيا لا يقوم على تصورٍ مقبول للإنسان. وهذا التحوّل المعرفي في تطور علم النفس الغربي يؤكد على فشل المدارس التي كانت تمثل أخطر تهديد للفكر الإسلامي، ولم يأت علم النفس المعرفي بتصورات فلسفية إلحادية بديلة.

كذلك نلاحظ تحولاً في اتجاه علم النفس الحديث إلى الجوانب الإيجابية في الإنسان وفي مقدمتها ما يسمى "بعلم النفس الإيجابي" الذي تبرّم من تركيز علم النفس خلال القرن الماضي على النواحي السلبية والمرضية عند الأفراد. كما نشاهد بكل سرور ذلك الاتجاه نحو اكتشاف أهمية الجانب الروحي والديني في دراسات Scott Peck – وهو أكثر الأطباء النفسانيين شهرةً في أمريكا – وبنسون Benson الذي يرأس معهد الجسم والعقل في جامعة هارفارد الأمريكية وغيرهما من علماء وفلاسفة علم النفس الذين أعادوا للإنسان روحه، وأكدوا أنّ الدين يمثل حجر الزاوية للاستقرار النفسي والسعادة[1]. وعلى الرغم من تأثر بعض هؤلاء العلماء بأديان الشرق الأقصى كالبوذية وما تدعو إليه من التأمل الروحي، فإن ما قاموا به خطوة مهمة في طريق رفض علمانية علم النفس.

ويجب على أستاذ علم النفس أن يحاضر لطلابه عن هذه التطورات الإيجابية في علم النفس ولا يكتفي بالمقررات الكلاسيكية. بل يجب عليه ألاّ يفوت أيّ فرصة لشحذ همم الطلاب للتفكر في خلق الله فيزدادوا إيمانًا مع إيمانهم. ولا تقتصر هذه الأسلمةعلى فروع علم النفس الاجتماعية فحسب بل حتى على تلك التي تدعمها البحوث العلمية التجريبية، أنقل للقارئ فيما يلي نبذةً من بحث لم أكمله بعد عن هذا الأسلوب في أسلمة علم النفس الفسيولوجي والعصبي وبشكل خاص عن دماغ الإنسان:

"مما يدعو إلى التفكر حقا هذا الإعجاز المحيّر في خلق الله لدماغ الإنسان إذ يقول

---

[1] راجع في ذلك:

Peck, M. Scott, *The Road Less Traveled and Beyond: Spiritual Growth in an Age of Anxiety* (New York: Simon & Schuster, 1997); Bension, Herbert, *Timelss Healing* (New York: Scribner, 1996).

علماء تشريح الجهاز العصبي ووظائفه أن أكثر الأشياء غموضًا في كون الله الواسع ليس هو بكوكبٍ أو نجم يبعد عنا بآلاف السنين الضوئية ولا تلك الفيروسات التي فشل العلم في شفاء المرضى منها ولكن أكثر المخلوقات غموضاً وتعقيداً في الكون هو هذا الكائن الصغير الذي لا يزيد وزنه على الثلاثة أرطال والذي يحمله كلٌّ منّا في مكانٍ حصين داخل جمجمته. وعلى الرغم من صغر حجمه، فإنّه يقوم بالإشراف والتنفيذ لكل نشاطات الإنسان العضوية والنفسية والاجتماعية والروحية ومن تنظيمٍ لحركة الجسم وإدراك بالسمع والبصر ومن فكر وتفكرٍ وتخيّلٍ وقدرةٍ على حل المشاكل وتخزينٍ مذهلٍ للمعلومات في ذاكرةٍ فشل العلم في معرفة كنهها ومن تذوقٍ للجمال وانفعال بالخوف والغضب والسرور وجميع العواطف الإنسانية الأخرى، وباختصار كل ما يشعر به الإنسان أو يقوم به في دنياه.

وقد حاول العلماء بعد ثورة الحاسبات الإلكترونية أن يسبروا غور نشاط الدماغ الإنساني من خلال عمل الكومبيوتر، وفي ذلك ينقل لنا الدكتور أحمد عدنان الجبوري في لقاءٍ سجله على الإنترنت ما كتبه ديفيد أوتوسون أحد مشاهير دراسة الجهاز العصبي بأنّه يستحيل على علماء الأعصاب في حاضرهم أو مستقبلهم أن يسبروا أسرار الدماغ البشري بشكل دقيق لأنّ الدماغ البشري لا يمكنه معرفة نفسه! كما أنّه من غير الممكن لعلماء الإلكترونيات لا في الحاضر ولا في المستقبل أن يصنعوا حاسبة تضاهي في مستواها دماغ الإنسان، ذلك لأنّ كفاءة الدماغ البشري تحتاج إلى مليون كمبيوتر متطور تعمل في وقتٍ واحدٍ و تستهلك في عملها هذا من الكهرباء ما يقارب مائة ألف أمبير في حين يقوم الدماغ البشري بمهمته المعجزة بعُشْر أمبير أي ما يوازي فقط ستة من وحدات الواط الكهربائي! ويتمّ هذا النشاط المذهل للدماغ بمساعدة أليافه العصبية التي تقوم مقام الأسلاك التي تنقل الكهرباء. وينقل الدكتور الجبوري أنّ المتخصصين في مراكز أبحاث العلوم العصبية والإلكترونية حاولوا أيضًا صناعة أسلاك تضاهي في فعاليتها ألياف الدماغ العصبية فوجدوا بعد دراسةٍ طويلةٍ أنّ الليف العصبي

الذي يبلغ طوله متر واحد يوازي في كفاءته سلك من النحاس يبلغ طوله عشر أمثال المسافة بين الأرض والمريخ! فبهذه الكفاءة نجد أن كل خليةٍ عصبية واحدة تتلقي آلاف الاشتباكات مع الخلايا الأخرى وتتلقى هذه الخلايا ملايين الإشارات العصبيه الكهربائية والكيميائية (الكيموكهربائية) في كل ثانية من حياة الإنسان فسبحان الذي برأ هذه المعجزة خلقاً بعد خلقٍ من نطفةٍ في جوف ظلماتٍ ثلاث.

هذه الملايين بل البلايين من الإشارات والنبضات العصبية التي يتلقاها الدماغ من مختلف أعضاء الجسم ومن الحواس من البيئة المحيطة بالإنسان ومن داخل مخيلته وذاكرته يقوم الدماغ المعجز بفهم مقصودها وينظمها ويصدر أمره النافذ بالتعليمات التي تحفظ للجسم صحته وتوازنه البيوكيميائي بالتحكّم على أجهزته المختلفة كالجهاز الهضمي بأعضائه المتنوعة وغدده التي لاحصر لها وجهازه التنفسي ودورة دمه وسرعة ضربات قلبه وجهاز إخراج فضلاته. ثمّ تلك الجوانب المتعلقة بحلّ المشكلات وبالتفكير المنطقي المتأني الذي ينظر في خبرات ما مضى ويسبح بخياله فيما يمكن أن يحدث في مستقبله أو تلك التي تحتاج إلى استجابات انفعاليةٍ سريعةٍ وقرارات حاسمةٍ لمجابهة الأخطار وصدّ العدوان أو الهروب".

3. الأسلمة لإثبات حقيقة أنّه بدون تأصيل إسلامي قد تصبح أغلب ممارسات علم النفس الغربي التطبيقي قليلة الفائدة، أو لا فائدة منها إن لم تكن ضارة

قد لا نحتاج إلى كثير حديثٍ عن هذا العنصر فلدي في ذلك خبرة امتدت لأكثر من أربعين سنة تحتاج إلى عدة كتب إن أردت أن أدونها. فمن ذكرياتي المؤلمة عندما كان التحليل النفسي الفرويدي في قمة سيطرته على النفسانيين المسلمين أنّ شباباً متمسكين بدينهم أصيبوا باضطراباتٍ مختلفةٍ كالقلق والاكتئاب ذهبوا إلى متخصصين في العلاج النفسي التحليلي فشخصوا لهم أسباب اضطراباتهم بأنّها مرتبطة بكبتهم الجنسي وامتناعهم عن ممارسة الجنس ونصحوا بعضهم باتخاذ صديقات ونصحوا آخرين بالخضوع لجلساتٍ طويلة من التحليل لاستخراج ما خفي عنهم من دوافعهم اللاشعورية الجنسية منها كما – زعم النفساني– كبت

أحدهم لرغبته الجنسية في مضاجعة شقيقته. فساءت أحوال بعضهم ودخلوا في أزمة روحية دينية كانت أشدّ على بعضهم من اضطرابه الذي أراد أن يجد له علاجا.

ومن الأدلة على ضرر التحليل النفسي حتى في الغرب الأوروبي ما سجّلته الطبيبة النفسية البريطانية Melitta Schmideberg في بحثها المنشور في مجلة "الطب النفسي" البريطانية بعنوان "العلاج النفسي للمرضى للذين تضرروا من التحليل النفسي"[1]. وقد نشرت هذا البحث بعد أن اقتنعت بعد سنوات طوال من ممارسة التحليل النفسي في بريطانيا بأنّ مرضي كثيرين قد ساءت أحوالهم بعد تلقيهم العلاج التحليلي فقامت بعلاجهم من العلاج التحليلي واستقالت من جمعية المحللين النفسيين البريطانية. وقد ذكرت في بحثها أن المرضى قد تتحسن أحوالهم بعد الجلسات الأولية ولكن ما أن يقوم المحلل النفسي بتفسيراته الجنسية عن عقدهم الأوديبية أو كراهيتهم لآبائهم حتى تبدأ صحتهم النفسية في الانحدار الشديد.

وفي المقابل كان بعض التحليليين في بلادنا يحلل لبعض مرضاه ما كان حرامًا في الدين بقصد علاجهم من شعورهم بالذنب! وذكر لي في ذلك الأستاذ الدكتور يوسف الخليفة في الستينيات من القرن الماضي أنه عندما كان يدرس علم النفس في مصر على يد متخصصٍ اشتهر في القاهرة بقدراته الفائقة في العلاج النفسي، كان ذلك الأستاذ يقول لطلابه مفتخرًا إنّه استطاع أن ينقذ مريضه من الإحساس بالذنب بأن أقنعه بأنّ كل الناس قد فعلوا فعلته أو أنهم يفعلونها سرّا! ماذا فعل هذا "المريض"؟ توفيت والدته وكان والده فقيرًا، فقام خاله بكفالته وتعليمه. فلمّا وصل سنّ البلوغ راودته نفسه على الزنا بزوجة خاله، فقبلت الزوجة واستمر في فعل الفاحشة معها عند غياب خاله لفترةٍ طويلة، ثمّ أنّبه ضميره وترك المنزل، وتملّكه الشعور بالذنب، فذهب يطلب العلاج النفسي. فأقنعه المعالج أن شوارع القاهرة المكتظة بالناس ليس فيها من لم يقم بما قام به،

[1] انظر:

Schmideberg, Melitta, "Psychotherapy with Failures of Psychoanalysis," *The British Journal of Psychiatry*, May 1970, Vol. 116, No. 534 (pp. 574-575).

وأنّ دافعه الجنسي إذا ما قاومه ربما يأتي له بأخطر من الشعور بالذنب. فتخلص الشاب من إحساسه بالذنب، ومات ضميره، وبقي الإثم بغير ندمٍ أو استغفار.

وهناك أساليب في العلاج النفسي أقلّ ضرراً على العملاء المسلمين، لكنّها قليلة الفائدة، بل قد تكون في بعض الأحيان عديمة الفائدة. مثلاً الإرشاد النفسي غير المباشر الذي يركز على نشاط العميل بقصد اكتشافه لتحقيق ذاته دون المساس بعقيدته وفكره وأخلاقه حتى ولو اعترف بعمل أشياء لا يقرها دين ولا حضارة أخلاقية. هذا الأسلوب يقوم على الفلسفة الإنسانية والوجودية كما أسلفنا ويرتكز على ديمقراطية الغرب ونظرته للإنسان، فالمرشد يجلس ليستمع ويتأكد مما يقوله العميل دون تدخل. وأعرف حالاتٍ كثيرة من العملاء الذين لم يفلح هذا الأسلوب في مساعدتهم ذكروا أنّهم مرّوا بفترات صمت طويلة لا يتكلمون ولا ينبس المعالج فيها ببنت شفة، وإذا تحدثوا بمشاكلهم لا يزيد المعالج على الإيماء برأسه مع قوله: "نعم... نعم". وكنت فيما مضى أظنّ أنّ هذا النوع من العلاج لا يصلح كثيراً لنا؛ لأننا أمة تربّت على استماع النصائح والخضوع لآبائنا وكبارنا ونتوقع منهم إرشادنا أو حتى إجبارنا على ما يجب أن نعمله، ويصعب علينا اقتراح الحلول لمشاكلنا أو اكتشاف مواهبنا لتحقيق أهدافنا وذواتنا، لكنني في زياراتي لبريطانيا وجدت الإنجليز يشتكون من الأشياء نفسها التي نشتكي منها ويقولون بأننا ندفع للمرشد فقط ليردد لنا: Yes Yes ummmum، ويردد ما نقول، ولعلنا أن نأتي بمسجل بدلاً عن دفع أموالنا لمسجل حي!

فإذا عكسنا الصورة نجد أنّ أسلمة العلاج الغربي تأتي في أغلب الحالات بالنجاح الباهر للعملية العلاجية. ولدي في ذلك خبرات لا تحصى. يفشل المريض في الاستفادة من علاج يقوم على الفكر الغربي كما لا يستفيد من العقاقير التي يصرفها له الطبيب النفسي ولا من العلاج الكهربائي فلمّا نقدم له علاجاً معرفيا إسلاميا تتحسن حالته بشكلٍ مذهل. ليس هذا فحسب، بل إنّ العلاج الإسلامي قد جاء بنتائجٍ مذهلة حتى بالنسبة للمشاكل التي اعترف علم النفس و علم النفس الطبي بفشله في علاجها. من ذلك إدمان

المسكرات والمخدرات التي وصل انتكاس الحالات التي عولجت إلى 90% بعد مرور سنة من العلاج. ففي بروناي نجح طبيب نفسي أسترالي في علاج المدمنين وإيقاف حالات الانتكاس لأكثر من 60% منهم، وذلك بوضع مجموعة المدمنين في معسكرٍ إسلامي خارج المدينة وقيامهم ببرنامجٍ إسلامي مركز من محاضرات وعلاج جمعي إسلامي وأفلام وغيرها من النشاطات، وكُررت التجربة في ماليزيا وأتت بنتائج مماثلة. كذلك استطاع العلاج الروحي الإسلامي والرقية الشرعية في علاج ضغط الدم الجوهري Essential hypertension. أجرى هذا البحث القيّم الدكتور العرقسوسي في جامعة الخرطوم حيث قام بتجربة قارن فيها بين الاسترخاء والعلاج بالرقية الشرعية مقارنًا بالاسترخاء والعلاج التشجيعي والاسترخاء دون علاج آخر. فكانت النتائج واضحةً في تفوّق الاسترخاء مصحوبًا بالرقية.

4. إعادة كتابة تاريخ علم النفس من منظور إسلامي

كثيراً ما يتهكم بعض متخصصينا النفسانيين على الباحثين في إسهامات الأطباء والعلماء الأقدمين في ميدان علم النفس ووصولهم إلى الممارسات المعرفية ذاتها التي وصل إليها علم النفس الحديث بعد تيهٍ زاد على السبعين أو الثمانين عامًا قضاها في تحليل الشعور ودراسته بالاستبطان، ثمّ في التحليل النفسي الفرويدي وما شابهه من مناهج، ثم السلوكية المتطرفة، حتى رسى أخيراً على شاطئ علم النفس المعرفي. يقول هؤلاء المتهكمون: "ما فائدة قولنا بأنّ فلاناً من علمائنا الأقدمين قال كذا أو فعل كذا مما لم يتوصل إليه علم النفس والطب إلاّ في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، أتركوا التغنّي بما مضى وأرونا ماذا قدمتم أنتم لهذا العلم؟" إن مثل هذا القول ينطوي على جهل بأهمية تاريخ الأمم وعلى تصورٍ خاطئ لما يمكن أن تقدمه دراسات الأولين لأجيال أخرى.

أولاً: من قال إنّ علماء الغرب لا يهتمّون بتاريخ أسلافهم العلمي؟ إنّهم يعلمون أجيالهم من الطلاب والشباب أن العلم التجريبي والعلوم الاجتماعية ما أتى بها إلا آباؤهم من الإغريق القدماء ثمّ وصلت إلى مدنيتهم الحديثة فطوّروها حتى وصلت إلى ما

وصلت إليه اليوم. لهذا كان الكثير من مصطلحات علم النفس ماخوذة من اللغة الإغريقية القديمة. ولتأكيد هذا الزعم الجحف تجد مؤرخي علم النفس الغربي عن قصد أو دون قصد تتجاهل كل إسهامات علمائنا وأطبائنا المسلمين من أمثال الغزالى وابن سينا والرازي والبلخي والمحاسبي وغيرهم من العباقرة. فتاريخ علم النفس والعلوم التجريبية الأخرى في كتبهم يبدأ بفلاسفة الإغريق القدامى وأطبائهم، ثم يقفزون عدة قرون إلى حضارتهم المعاصرة، وكأنّ الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى كانت في كوكب القمر. انظر مثلاً كتاب ميلفن ماركس ويليم هليكس عن تاريخ علم النفس الذي يحذف المؤلفان فيه أكثر من خمسة عشر قرناً من الزمان ليربطا بين الإغريق والحضارة الغربية المعاصرة[1]. وهما في ذلك يتّبعان قول مانويل فوكس Manuel Fox الذي أكّد بكل قوة أنّ "على علماء الغرب أن يربطوا تاريخ علومهم بتاريخ الحضارة الأوروبية التي جاءت من إسرائيل واليونان القديمتين وأن يشطب بكل القوة كلما عدا ذلك مهما كان رسوخه تاريخيا"[2]. لذلك أهملت إسهامات علمائنا القدامى وادعوْا لأنفسهم ما سرقوه من هذه الإسهامات ثمّ جاء طلابنا في هذا العصر ليدرسوا تاريخ علمهم ممن اجتثوا صلتهم بآبائهم.

وللأوروبيين دوافعهم في هذا الإجحاف المتعمّد، ولكن ما عذرنا نحن في اتباع هذه الافتراءات على تاريخنا العلمي؟ لو أننا كنّا أمة لا تراث لها ولا دين حنيف يرد كيد الفكر الغربي ويرد على كل مثل بما هو أفضل وأحسن تفسيراً، لهان الأمر. ولكننا أمة قد وصل علماؤها وأطباؤها النفسانيون إلى ما وصل إليه علم النفس والطب النفسي في الغرب بعد سنين طويلة قضوها في التيه التحليلي والسلوكية المغلقة الجامدة.

---

[1] انظر:

Marx, Melvin H. & A. Hillix, William, *Systems and Theories in Psychology* (New York: McGraw-Hill Book Co, 3rd edn., 1979).

[2] انظر:

Manuel, Frank Edward, *The Age of Reason* (Ithaca: Cornell University Press, 1984), pp.v-vi..

وقفات مع أبي زيد البلخي

ولأوضح ذلك أقدم للقارئ عرضًا وتحليلاً لإسهامات عبقريٍّ واحدٍ من علمائنا عاش قبل أكثر من اثني عشر قرنًا، ألا وهو العلاّمة أبو زيد البلخي. لقد أحسن الدكتور فؤاد سزكين – مدير معهد العلوم العربية والإسلامية في ألمانيا – صنعًا حينما قام بتصوير مخطوطة "مصالح الأبدان والأنفس" القيّمة لهذا العالم الفذ. فلا يكاد المتخصص في الطب النفسي وعلم النفس العيادي أو الإكلينيكي الحديثين أن يصدق بصره وهو يتنقل بين صفحات هذا السفر المدهش الذي يضم بين دفتيه أحدث ما توصل إليه علم النفس العلاجي المعاصر. وقد ذكرت في بحث نشرته في مجلة "الطب النفسي الماليزية" أن النفسانيين المسلمين لو تواضعوا وقرأوا مخطوطة البلخي هذه بتدبر لكانوا هم الروّاد للعلاج السلوكى (behaviour therapy) وللثورة المعرفية الحديثة في ميدان العلاج النفسي (cognitive therapy)، ولما أضاعوا عشرات السنين في التقليد الأعمى لنظريات وممارسات غربية فاشلة أو قليلة الجدوى قامت على الفكر الإلحادي الرافض لروحانية الإنسان[1]. وإليك أيها القارئ الكريم عرضًا لأهم إسهاماته في هذا الميدان العلاجي التي لخصت بعضها من بحثي الذي أشرت إليه.

1. البلخي أول من فرق بوضوح بين العصاب والذهان وجمع بين الانفعالات المختلفة في تصنيف واحد

استطاع البلخي بحسه الإكلينيكي العبقري أن يفرق بين العصاب أو المرض النفسي neurosis والذهان أو المرض العقلي (الجنون) psychosis ولعله الرائد الأول في ذلك. ثم استطاع أن يوحد الانفعالات الإنسانية كالغضب والحزن والقلق في منظومة واحدة وأكد أنّ اختلالها هو المسؤول عن الاضطرابات النفسية. استمع إليه وهو يحدثك بنفسه في هذا الشأن:

---

[1] راجع:

Badri, Malik B., "Abu-Zayd Al-Balkhi: A Genius Whose Psychiatric Contributions Needed More than Ten Centuries to be Appreciated," *Malaysian Journal of Psychiatry*, Vol.6, No.2, September 1988.

"إنّ الأشياء التي تنسب إلى النفس كثيرة منها قوى فاضلة كالعقل والفهم والحفظ (أي ما نسميه بلغة اليوم بالأنشطة المعرفية cognition or higher mental processes) والأخرى مسترذلة هي أضدادها ومنها أخلاق محمودة كالعفة والسخاء والكرم والأخرى مذمومة مضادة لها ومنها أشياء عارضة تقع وترتفع... كالغضب والفزع وما أشبههما. والمقصود منا فيما نصفه مما يضاف إلى الأنفس إنما هو الشيء الأخير، نعني الأعراض التي تحدث وتزول؛ لأنها هي التي تتصل أسبابها بأسباب البدن فتقلقه وتغيره تغييراً ظاهراً قويّاً مثل الغضب الشديد والفزع والخوف حتى يسخن البدن عن ذلك أو يبرد ويحدث فيه أحداثًا موحشة المناظر"[1].

2. البلخي رائد الطب السيكوسوماتي والتكاملي

ركز البلخي على الناحية النفسجسمية أو السيكوسوماتية psychosomatic في كل جوانب المخطوطة ليس هذا فحسب، بل إنه لينتقد أطباء عصره لإهمالهم أهمية النواحي النفسية في مرضاهم، رغم قدرتها على إحداث أعراض جسمية، كما ينعى عليهم المبالغة في دقائق تشخيص الأعراض العضوية والاكتفاء بعلاجها، وكأن الإنسان جسم بلا روح أو نفس، وكأنه في ذلك يتحدث عن أطباء اليوم. يقول:

"إنه لما كان (الإنسان) مركبًا من بدن ونفس صار يوجد له من قبل كل منهما صلاح وفساد، وصحة ومرض. (لذلك) .. فإن إضافة مصالح الأنفس إلى تدبير مصالح الأبدان أمر صواب لاشتباك أسباب الأبدان بأسباب الأنفس"[2].

ولا شك في أن اختياره لاصطلاح "الاشتباك" دليل على عمق ملاحظته الإكلينيكية وقدرته اللفظية الراقية. ثم يشرح مفهوم هذا الاشتباك بأسلوبه السهل الممتنع فيقول: "إن البدن إذا سقم منع قوى النفس من الفهم و المعرفة ، كما أن

---

[1] البلخي، أبو زيد، **مصالح الأبدان والأنفس** (فرانكفورت: معهد العلوم العربية والإسلامية، 1984)، ص287-288.

[2] المصدر نفسه، ص270-272.

النفس إذا اعتلت منعت صاحبها من التلذذ بمتع الحياة، .. وربما أداه تحامل الآلام النفسية إلى الأمراض البدنية"[1].

ولا تظنّن أيها القارئ الكريم أن البلخي حين ذكر أنّ الإنسان مركب من نفس وبدن أنه يستخدم لفظ "النفس" بمفهوم علم النفس الحديث. فتشابه اللفظ يجب ألا يجعلنا نخلط بين النفس بمعناها الروحي الإسلامي الذي لا يحيد عن الإيمان به مسلم في ذلك الزمان، و النفس بمفهومها العلماني السيكولوجي المادي المعاصر. يجب علينا أن نفرّق بين الحقيقة الإسلامية بأن الله خلق الإنسان من طين و نفخة إلهية روحية – كما أشار البلخي في أكثر من موضع في كتابه – وأنّ هذه النفس لطيفة ربانية تفارق الجسد عند الموت، وبين التصور المادي لكون للإنسان نفس ليست لها كيان مستقل محدد بل هي بمثابة شعوره بذاته Self أو أنها نواة لشخصيته Ego أو أيّ تصور علماني آخر.

3. ريادة البلخي في تصنيف الاضطرابات النفسية

إنّ المتخصص الحديث قد يجد نفسه منبهرًا أشدّ الانبهار عندما يقرأ تصنيف البلخي الدقيق لأهم أنواع الأمراض النفسية. فهو يرتب الأعراض النفسية تحت أربعة أصناف، ألا وهي الغضب ثم الخوف والفزع ثم الحزن والجزع ورابعها الوسواس. فإذا تدبرنا في هذه الأصناف الأربعة، نجدها تحوي أهم الفصول التي يدرسها طلاب علم النفس المرضي وعلم نفس الشواذ في الجامعات المعاصرة تحت باب الاضطرابات العصابية المعروفة باضطرابات القلق (anxiety disorders) كالمخاوف المرضية (phobias)، والعصاب الوسواسي القهري (obsessive-compulsive disorders)، كما يشتمل تصنيفه فوق ذلك على الاكتئاب (depression) بأنواعه المعروفة. ولم يصل علم الطب النفسي إلى مثل هذا التصنيف إلاّ بعد قرون من وفاة عالمنا العبقري.

---

[1] المصدر نفسه، ص272.

4. تأكيد البلخي كون الاضطرابات النفسية صورة مبالغة للتوترات الانفعالية للأسوياء

للبلخي نظرة حديثة متفائلة للمرض النفسي سبقت متخصصي الصحة النفسية بقرون. فالفرق بين المضطرب نفسيا والشخص العادي المنفعل عند البلخي إنما هو اختلافُ درجة وليس اختلاف نوع، يجعل من هذا مريضًا ومن ذاك صحيحا. ويتضح لنا ذلك في أنّ البلخي كرّس الأبواب الثلاثة الأولى للناحية الوقائية للصحة النفسية؛ فالباب الأول بعنوان "مبلغ الحاجة إلى تدبير مصالح الأنفس"، والباب الثاني "في تدبير حفظ صحة الأنفس عليها"، ثم الباب الثالث "في تدبير إعادة صحة الأنفس إذا فقدت". فهذا تسلسل وقائي يركز على حفظ الصحة النفسية بدلاً عن إهمال الوقاية وبذل الجهد في تصنيف الأمراض النفسية وكيفية علاجها بعد وقوعها كما يفعل المتخصصون في الطب النفسي وعلم النفس العيادي اليوم. بل إنّ البلخي لا يتحدث في هذه الأبواب عن المضطربين نفسياً على أنهم "مرضى" كما يفعل اليوم أكثر أطباء النفس ومعالجيها، بل يعتبرهم أشخاصا عصفت بهم انفعالاتهم إلى أعراض منعتهم من السكينة والتلذذ بمباهج الحياة ومتابعة أعمالهم اليومية. لذلك يعتبر البلخي الاهتمام بمصالح الأنفس أهم بكثير من الاهتمام بمصالح الأبدان، فيقول:

"الأعراض النفسانية هي مثل الغضب والغم والخوف والجزع وما أشبهها... وهي ألزم للإنسان وأكثر اعتراءً له من الأعراض البدنية، وذلك أنّ الأعراض البدنية قد يسلم الواحد... منها حتى لا يكاد يعرض له في أكثر أيام عمره منها أو من عامّتها شيء. فأما الأعراض النفسانية فإن الإنسان مدفوع في أكثر أوقاته إلى ما يتأذى به منها إذ ليس يخلو في كافة أحواله من استشعار غمٍّ أو غضب أو حزن"[1].

[1] المصدر نفسه، ص270-271.

5. ريادة البلخي في التمييز بين الحزن العادي والاكتئاب الاستجابي والاكتئاب الذهاني (الداخلي)

لقد صنف البلخي أنواع الحزن والاكتئاب بتفصيل ينم عن حسٍّ علاجي (إكلينيكي) سبق به عصرنا بأكثر من عشرة قرون. فهو يتحدث أولاً عن الحزن والاكتئاب العادي الذي يصيب جميع الناس بين الفينة والفينة ولا يمكن تجنبه كليا لأنه كما يقول: "موجود في طباع الدنيا وبنيتها، فليس في ذلك حيلة". ثم هو بعد ذلك يقسم الحزن إلى نوعين أو ضربين كالآتي:

"أحدهما ما يكون معروف السبب كإنسان يعرض له الحزن من فقد محبوب من أهل أو مال أو شيءٍ خاصّ الموقع منه، والآخر مجهول السبب وهو غمّة يجدها الإنسان على قلبه في عامة الأوقات تمنعه من النشاط وإظهار السرور وصدق الاستمتاع بشيءٍ من اللذات والشهوات من غير أن يعرف لهذا الفتور والانكسار اللذين يجدهما شيئاً يخيّل بهما عليه. فأما الحزن المجهول السبب فإنه يرجع إلى الأعراض البدنية وتولده إنما يكون من قلة صفاء الدم. وحيلة دفعه إما عن طريق العلاج الجسماني... من الأغذية والأدوية، وإما من طريق العلاج النفساني فبالتلطف لاجتلاب السرور إلى النفس بالمحادثة والمؤانسة والاستماع بما تطيب النفس به"[1].

ويتحدث هذا العبقري الملهم إذن عن ثلاثة أنواع من الحزن و الاكتئاب. أولها الاكتئاب أو الحزن العادي وهو ما يسميه أحدث تصنيف للأمراض النفسية (DSM-111-R) باصطلاح (normal depression). ثم ذلك النوع المعروف باسم الاكتئاب الاستجابي أو العصابي الذي يحدث بسببٍ بيئيٍّ معروفٍ كفقد عزيزٍ أو مالٍ أو وظيفةٍ (reactive depression). أما النوع الثالث فهو ذلك الاكتئاب أو الحزن الداخلي (endogenous depression) الذي يحدث أساسًا بسبب اختلال كيميائي في هورمونات الدماغ. وقد ينزل

[1] المصدر نفسه، ص316-317.

هذا النوع من الحزن على صاحبه دون مقدمات كنزول السحابة السوداء دون أن يعرف لهذا الحزن و الغمة و قلة النشاط و فقدان الشهية للطعام سببًا أو قد يكون السبب تافهًا بالنسبة لعظم الإصابة. وهذا النوع من الاكتئاب يحتاج إلى علاج عقاقيري مركز و في بعض الحالات الشديدة إلى علاج كهربائي.

إنّ التفريق بين الاكتئاب الخارجي أو الاستجابي المعروف السبب والداخلي العضوي أمر تثبته الأبحاث في ميادين كيمياء الدماغ العضوية و الوراثة و حتى الدراسات الإحصائية الوصفية مما جعل الأطباء النفسانيين في كثيرٍ من البلدان يتمسكون بهذا التفريق رغم محاولة التصنيف الأمريكي الجديد التقليل من أهميته.

إن اكتشاف البلخي لهذه الفروق الدقيقة بين هذه الأنواع الثلاثة للحزن والاكتئاب قبل أكثر من عشرة قرون لأمر يدعو إلى الدهشة والإعجاب الشديدين. فلم يتحدث عالم شرقي أو غربي عن مرض نفسي أو عقلي تظهر أعراضه خارجيا بسبب العوامل البيئية أو داخليا بسبب اختلال في داخل الجسم إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين عندما نشر إميل كريبلين Kraepelin Emil تصنيفه المشهور للأمراض النفسية والعقلية.

ويبدو واضحًا من كتاب البلخي أنه لا يحبذ العلاج النفسي المعرفي للحزن والاكتئاب الداخلي بل يترك علاجه للطب الجسماني بالأدوية والأغذية. ولئن استخدم العلاج النفسي لهذا النوع من الحزن الداخلي السبب فالتركيز إنما يكون كما يقول على ما يجلب السرور من المؤانسة والسماع، أي الاستماع إلى الأغاني والألحان الشجية التي تحرك الوجدان و تدخل السرور إلى القلوب المكلومة.

6. البلخي رائد العلاج السلوكي والمعرفي

وهنا نأتي إلى أهم اسهام للبلخي، وهو استخدامه لأحدث ما توصل إليه علم النفس العلاجي الحديث. وقبل أن أسطر ما ذكره البلخي في العلاج السلوكي المعرفي أرجو أن أنقل

للقارئ ترجمةً دقيقةً لما كتبه أحد أشهر علماء العلاج المعرفي في الغرب وتأثر به الأخصائيون المسلمين المحدثين وكأنّه اكتشاف غربي حديث. ذلك الأخصائي الرائد هو آرون بك Aaron Beck الذي يقول ما ملخصه:

"إنّ إصابة الناس باضطرابات نفسية لا تأتي بسبب عوامل غامضة (لاشعورية) كما يزعم فرويد في نظريّاته التحليلية، بل بسبب مسائل عادية مثل تعلم واكتساب العادات المرضية أو الاستنتاجات الخاطئة من معلومات غير صحيحة. وهذه العوامل تؤدي بالشخص حتماً إلى التفكير المغلوط غير المنطقي، وذلك بدوره يؤدي إلى الانفعالات النفسية المرضية كالقلق والاكتئاب. هذا لأنّ انفعال المرء تابعٌ لتفكيره ولما يقوله لنفسه. لذلك فإنّ الدور الأساسي للمعالج النفسي المعرفي هو مساعدة المريض على استخدام قدراته الطبيعية في حلّ المشكلات للتعرف على تصحيح فكره والتخلص من سيطرة الأفكار السلبية وأن يستبدل بها أفكاراً ومشاعر عقلانية متسقة مع الواقع المعاش. وبما أن هذا التعديل لا يتم إلا بتعاون الفكر والأحاسيس والانتباه والتذكر والتخيل، وكلها عمليات عقلية عليا، سمينا هذا النمط من العلاج بالعلاج المعرفي"[1].

عندما نتصفح مخطوطة البلخي نجده ينحو النحو نفسه الذي يؤكد أنّ التفكير الخاطئ وما يتبعه من تصورات وانفعالات منحرفة هو المسؤول الأول عن إصابة الناس بالأعراض النفسية، وأن تبديل هذا الفكر هو الذي يتم عن طريقه العلاج وإراحة المضطربين من أعراضهم، لكنه يمتاز على المحدثين بربطه بين الناحية المعرفية النفسية والجانب الجسمي العضوي جرياً وراء اهتمامه الذي لم يسبق له باشتباك الجسم والنفس فيقول في الباب الثاني من المقالة الثانية المنعون "تدبير صحة الأنفس عليها" ما يلي:

"كما أنّ البدن إنما يحفظ صحته عليه بوجهين: أحدهما أن يصان من الآفات الخارجة

---

[1] انظر آرون بك:

Beck, Aaron, *Cognitive Therapy and the Emotional Disorders* (New York: International Uuniversities Press, 1967), pp. 20-27.

كالبرد والحر والنكبات المؤلمة. والآخر أن يصان عن النكبات الداخل، وهو أن لا يترك شيئًا من أخلاطه الأربعة يهيج عليه فيغلب سواه، وذلك بتعديل الغذاء وأخذ النافع واجتناب الضار منه... كذلك النفس إنما يحفظ صحتها عليها بوجهين: أحدهما أن تصان من الأعراض الخارجة التي هي ورود ما يرد عليها من الأشياء التي يسمعها الإنسان أو يبصرها فتقلقه وتضجره وتحرك منه قوة غضب أو فزع أو غم أو خوف وما أشبه ذلك. والآخر أن تصان من الأعراض الداخلة التي هي التفكير فيما يؤديه إلى شئ مما وصفناه من الأعراض فيشغل قلبه وينقسم ضميره"[1].

ثم يتحدث عن العلاج في الباب الثالث فيقول:

"وكما أنّ العلاج البدني إما أن يكون بشيء من داخل كالاحتماء والامتناع مما لا يجب تناوله ومد يده إليه، وإما أن يكون بشيء [من] خارج مثل ما وصفناه من الأغذية والأدوية، كذلك معالجة النفس مما يعرض لها إما أن يكون شئ من داخل وهو فكرة يثيرها الإنسان من نفسه فيقمع بها ذلك العارض ويسكن ذلك الهائج وإما أن يكون بشيء [من] خارج وهو كلام يعظه به غيره فينجع فيه ويعمل في تسكين الهائج"[2].

ولاهتمامه الواضح بالناحية الوقائية التي تفوق بها على رواد العلاج المعرفي الحديث، لا يكتفي في علاجه المعرفي بتصحيح الأفكار والتصورات، بل يذهب بعيداً حينما يقدم النصح للأسوياء والأصحاء بأن يخزّنوا في عقولهم الوصايا الفكرية الصحية في حال سكينتهم وصحتهم النفسية ليستفيدوا منها إذا ألمّت بهم بعض الأعراض النفسية. ويقارن بين هذه الأفكار المستودعة في الذاكرة وبين خزانة العقاقير والأدوية التي يضعها الأصحاء في بيوتهم ليستخدموها إذا أصابهم طارئ من مرض أو حادث، أي ما نسميه اليوم بخزانة الإسعافات الأولية. وهذا لعمري هو من أبدع ما يمكن أن يتصور بالنسبة

[1] المصدر نفسه، ص276-277.

[2] المصدر نفسه، ص283.

لأهمية التفكير في جلب الاضطرابات الانفعالية وفي علاجها. يقول البلخي:

"فإنّه ليس يستغني مع ذلك عن معونة تلحقه من داخل (نفسه) بوصايا فكرية تتهيّأ أن يقمع بها الأعراض النفسانية إذا هاجت ، فيجمعها في نفسها في وقت صحتها وسكون قواها ويستودعها قوة الحفظ منها ليخطرها بباله و يعظ بها نفسه إذا لم يحضره واعظ مذكر من خارج كما يفعله المحتاط في الأعراض البدنية لنفسه بأن يتطلب أدوية تصلح للأمراض البدنية فيجمعها و يستودعها خزائنه إلى أن يعرض له عارض من الأمراض و الأوجاع في وقت لا يحضره فيه طبيب يعالجه فيتناولها لينتفع بها و ينزع أذى العارض عن نفسه"[1].

7. علاج البلخي المعرفي للخوف والقلق

وكما يتحدث المعالجون بالأساليب المعرفية المعاصرون عن أن معظم الأفكار التي تسبب الانفعالات المرضية لا تقوم على تصورات عقلانية حقيقية وأن ما يخافه المضطرب نفسياً أو يحزن أو يغضب منه إنما هو من نسج الأفكار المغلوطة. نقرأ للبلخي المفاهيم نفسها ولكن بلغة بليغة ومع أمثلة طريفة حيث يقول:

"إن توقع كثير من المكاره ربما كان أشد من وقوعه، فإنّ المخاوف أكثرها غير ضار، ولذلك قالوا: أكثر ما تخافه لا يضرك، وقيل أكثر الروع باطله. ولذلك شبه الحكماء الأمور المخوفة التي يهاب الإنسان الاندفاع إليها بالضباب الذي يتولد على وجه الأرض فيخيل للإنسان من بعد أنّه جسم كثيف ليس فيه متنفس ولا عمل للبصر في إدراك شيء من الأشخاص التي في حيّزه، فإذا داخله وجده شبيهاً بالهواء الذي فارقه"[2].

لا شك في أن مثال الضباب هذا هو من أروع الأمثلة التي تضرب للعرب الذين فتحوا البلاد الباردة، وكثير منهم ربما رأى الضباب لأول مرة في حياته. وكذلك نقرأ

---

[1] المصدر نفسه، ص286.

[2] المصدر نفسه، ص306-307.

للبلخي تشبيهه الأفكار والمشاعر المرضية التي لا تستند إلى واقع منطقي بمخاوف الطفل الصغير من المثيرات الجديدة من الألوان والأصوات التي لو تعرف على مصدرها أو تعوّد عليها بالتكرار لزالت مخاوفه[1]. إذن فالعلاج من الأعراض النفسية عند البلخي هو اتباع الأساليب المعرفية الحديثة نفسها التي تعتمد على كشف أخطاء تفكير المصاب وتناقضاته مع الواقع حتى تتبدل انفعالاته. ونجد في هذا الجانب العلاجي أحد أهم إسهامات للبلخي في هذه المخطوطة القيّمة.

ثم ينتقل البلخي في علاجه للخوف والقلق في باب "تسكين الخوف والفزع" إلى العلاج السلوكي بالتعويد وهو تغيير تفكير الخائف القلق بتكرار الخبرات المفزعة عليه في ظروف يجد فيها السكينة والتشجيع حتى يعتاد عليها، وهذا لعمري هو ما جاء به وُولبي Wolpe في الخمسينيات من القرن الماضي. يضرب البلخي مثلاً لهذا الأسلوب العلاجي بقوله:

"إنّ الذين لم تقع أبصارهم على الحروب و القتلى و الجرحى متى نظروا في بادئ أمرهم إلى شيء منها هالهم ذلك هولاً شديداً..وإذا طالت ممارستهم للحروب و صاروا من أهلها قلّ ارتياعهم. ومن هذا النوع أمر الأطباء الذين يباشرون أثر القروح و الجراحات و البطَّ و الكي، فإنهم متى اعتادوا مباشرة ذلك و مرنت أبصارهم عليه لم يرعهم ما يروع الذين لم يسبق لهم عادة بالنظر إلى شيء من تلك المناظر الموحشة"[2].

ومن أروع ما ذكره البلخي في هذا الفصل استخدامه لانفعالٍ "مرضي" لعلاج تفكيرٍ أكثر منه اضطراباً! فيضرب لنا مثلاً باستعمال انفعال الغضب، مع كونه من الأعراض التي أفرد فصلاً لعلاجها، في تغيير تفكير الخائف المذعور حيث يستثير الغضب على نفسه حتى يستحيي من خوفه في مجابهة المخوف. استمع إليه يقول:

"يستظهر (الخائف) على نفسه في دفع آفة الخوف عنها بقوة الغضب وهو أن يفكر

---

[1] المصدر نفسه، ص309.

[2] المصدر نفسه، ص320-321.

في أنّ إظهار الخوف والفزع من خور النفس وفشلها وأنه أمر خاص لضعاف الأنفس من النساء والصبيان وأشباههم، فيغضب على نفسه ويأنف لها من أن توجد عند حضور المخاوف في مثل أحوال الذين لا يوجد عندهم جلادة ولا صرامة"[1].

8. علاج البلخي المعرفي للغضب

يقدم البلخي للمعالج كثيراً من الحيل الفكرية التي يمكن استخدامها من الخارج، أيّ من شخص يقوم بوعظ الغضبان وتهدئته، أو من الداخل بمعاونة المصاب بالغضب المزمن والسلوك العدواني على تغيير تفكيره. فمن ذلك مثلاً أن يفكر الملوك وغيرهم من أصحاب الشأن فيما جنى الغضبُ على بعض مَنْ هم في مقامهم فأقدموا على أمور جرَّت عليهم أعظم الضرر في دينهم ودنياهم. ومن هذه الحيل أن يفكر المرء في فضيلة الحلم وأنه من أشرف المناقب ولها أجرها العظيم عند الله تعالى. ومنها أن يتجنب مقابلة الشخص الذي أغضبه حتى تسكن ثائرته، ومنها أن يتفكر ويتذكر الأخطاء المشابهة التي ارتكبها هو في ماضي حياته من مثل التي أغضبته الآن. فمثل هذه الأساليب العلاجية، كما يقول البلخي، كمثل الماء البارد الذي يصب على قدر يفور غلياناً فيسكنه.

لذا يؤكد البلخي، خلافًا لبعض المدارس النفسية المعاصرة، أنّ التنفيس عن الغضب لا يساعد على تخفيف هذا العرض بل يزيد ناره حطبا. وهذا هو التصور الحديث لعلم النفس المعرفي. ويشبه البلخي إهمال الفرد تغيير أفكاره ومشاعره الغضوبة في بداية الأمر بالشخص الذي أهمل اشتعال النار وهي خفيفة في بدايتها وتركها حتى عظمت وصعب إطفاؤها.

9. علاج البلخي المعرفي للحزن والاكتئاب

يبدو واضحًا من كتاب البلخي أنه لا يحبذ العلاج النفسي المعرفي للحزن والاكتئاب الداخلي endogenous depression، بل يترك علاجه للطب الجسماني

[1] المصدر نفسه، ص308.

بالأدوية والأغذية. ولئن استخدم العلاج النفسي لهذا النوع من الاكتئاب الداخلي السبب فالتركيز إنما يكون على ما يجلب السرور من الصحبة والمؤانسة والاستماع إلى الأغاني والموسيقى الشجية التي تحرك الوجدان و تدخل السرور إلى القلوب المحزونة.

وأما علاج الحزن الاستجابي الذي تظهر أسبابه، فينصح فيه بخطة العلاج نفسها التي اتبعها بالنسبة لتسكين الخوف والفزع: علاج خارجي بالوعظ والتذكير، وعلاج داخلي معرفي يقوم على تبديل تفكير الحزين حتى يقتنع بأنّ مبالغته في الحزن تقوم على فكر خاطئٍ قد يكون وبالاً عليه إذا لم يغيره. فيفكر فيما يمكن أن يجلب عليه الحزن من الأمراض الجسمية، فإن كانت نفسه التي بين جنبيه أعزّ عليه من أيّ شيءٍ آخر كان من الحماقة أن يتلفها من أجل محبوب غاب عنه. ثم يوقن بأنّ الجزع مصيبة عليه أكثر مما فقده وأنّه من صفات النساء وضعاف النفوس. والحياة الدنيا دار امتحان ونوائب فإن أصبح الحزن والجزع صفةً راسخةً فيه "فإنه لم يزل في رزايا متتابعة تتضاعف عليه"[1]، وإن صبر وحسم أمره وبدّل من فكره فقد تزود لمصائب المستقبل. هذه بعض الحيل النفسية المعرفية التي ذكرها البلخي. ولا شك في أن اتجاهه في العلاج النفسي المعرفي هو أكثر ملاءمةً لحضارتنا العربية الإسلامية مما نجده في الكتب الغربية.

10. علاج البلخي المعرفي للوسواس القهري

إنّ مجرد تعريف البلخي وتصنيفه لوساوس الصدر وحديث النفس القسري كأحد الأعراض النفسية لهو من أغرب وأعظم الإسهامات التي قدمها لمعاصريه وسبق بها علم النفس الطبي بأكثر من تسعة قرون. فكما ورد في كتاب Ricks Warren المعنون *Anxiety disorders: A rational emotive perspective* أنّ مؤرخي علم النفس الطبي يؤكدون أنّ أول عالمٍ عرّف هذا الاضطراب ودرسه بوصفه مرضًا نفسيا هو الفرنسي إسكويرول Jean-Étienne Dominique Esquirol في عام 1835م، متجاوزين

[1] المصدر نفسه، ص317-320.

بزعمهم ذلك إسهام البلخي كما يفعل في العادة مؤرخو أوروبا الذين يرجعون كل إسهامٍ علميٍ لليونان ومن ثمّ ينتقلون عبر القرون إلى حضارتهم و كأن الحضارة الإسلامية ازدهرت في كوكب القمر!

ففي عصر البلخي كان الفهم السائد أنّ هذا المرض أسبابه روحية بحتة وعلاجه أيضًا مقصور على الوسائل الروحية والدينية. وبالرغم من أنّ البلخي لم ينف أثر العوامل الروحية والشيطانية كما يفعل أطباء النفس الغربيون الماديون الآن، إلا أنّه قد وضع هذا الأثر في إطاره النفسي المعرفي الصحيح إذ يقول:

"إنّ الوساوس ربّما تتولد..من قبل الشيطان المتكفّل بالإضرار به (المريض)... وإذا تحقق هذا من أمر الوساوس فإنها من أيّ جهة تعرض فإنّه لا محصول لها، وجب عليه أن لا يلتفت إليها في وقت ما تهجس في ضميره ويجعل هذه الفكرة إحدى عُدَد مجاهدته إياها"[1].

فكأنّه ينصح المصاب بهذا الاضطراب، إن اعتقد بأنّ لهذه الأرواح الشريرة دور في مرضه، أن يقوّي ثقته بنفسه و ألاّ يدخل السرور على هذه الأرواح الشريرة بقبول الأفكار الرديئة التي يريدونه أن يتبناها وأن يخالفهم بقوة بتصحيح فكره ومشاعره والالتجاء إلى ربّ العزة القادر على أن يجعل كيدهم في تضليل، فإنّ كيد الشيطان كان ضعيفًا، إذن فتصحيح الأفكار هو مفتاح العلاج. وإذا كانت الأسباب من قبل روح شريرة فذلك أدعى لمخالفة وسواسها بالمقارنة بالأسباب النفسية أو غيرها، فإسلام النفس إلى هواجس نفسية المصدر (كما يقول) أكرم للإنسان من الاستسلام لشيطانه. واليأس من رحمة الله صنوٌ للكفر واستسلام المبتلى بهذا الداء باعتقاده أن لا فائدة من أيّ علاج سيفقده حتمًا الاستفادة من العلاج المعرفي الذي يعتمد على تغيير الأفكار والأحاسيس، وهو فوق ذلك قنوط و تشاؤم لا يقرّه الدين. يقول البلخي في ذلك:

[1] المصدر نفسه، ص344.

"هذا رأي ليس بصواب (يعني اليأس) بل الواجب عليه أن يوقن بأنّ الله تبارك و تعالى جعل لكل داءٍ يعرض للأبدان و الأنفس دواءً و لكل ألمٍ يحدث فيهما شفاء. فإذا قوبل الداء بدوائه لم يخل ذلك من أحد أمرين، إمّا أن يزيله، وإما يقلل من مكروهه"[1].

لم يعط البلخي هذه الأسباب الروحية الدينية سوى أسطر لا تتجاوز الصفحة وكأنه بذلك قد ترك أمر العلاج الروحي لأهله من الشيوخ والفقهاء، إذ لم تكن هناك أزمة مفتعلة كالتي نشهدها في هذا الزمان بين العلاج القرآني والإسلامي بالرقى والدعاء وطب الأجسام والأنفس. ففي ذلك الزمان التزم الرقاة والشيوخ بالسنة الصحيحة وتجنبوا البدع والسحر في علاجهم الروحي ولم يتهموا الأطباء بالبعد عن الدين ومخالفة السنّة والأحاديث النبوية الصحيحة، كما لم يتأثر الأطباء بفكرٍ مادي علمانيٍّ يعتبر كل ما خرج عن دائرة العلم التجريبي وفنونه الطبية المبتكرة ضرباً من الشعوذة. بل إنّ الكثير من المعالجين كانوا يخلطون بين الطب والعلاج الروحي. لذلك فقد ركز مؤلفنا في مخطوطته على العوامل النفسية والجسمية وترك العلاج الروحي لأهله.

وليس من المبالغة القول إننا عندما نقرأ ما كتبه مؤلفنا العبقري عن الوسواس القهري نجده قد تناول بالبحث كل العوامل التي استنبطها علماء اليوم من دراساتهم التجريبية والعيادية وزاد عليها. فالبلخي يؤيد الرأي الحديث القائل بأنّ هذا الاضطراب هو أكثر الأمراض النفسية إيذاءً للإنسان وأصعبها علاجا. كما يدهشنا بدقة ملاحظته الإكلينيكية حين يقول:

"هذا العرض وإن كان أحد الأعراض النفسانية... فإنّه ليس من خالصها بل فيه شركة من الأعراض البدنية، وذلك أنّ الأعراض النفسانية التي هي مثل الغمّ و الغضب والخوف والحزن لا يخلو أحد من أن يصيبه شيء منها في الوقت بعد الوقت.. أما هذا العرض الذي هو حديث النفس فإنه عرض خاص وربما سلم منه كثير من الناس، ليس

[1] المصدر نفسه، ص335.

من جهة أنهم يخلون من أحاديث النفس ووساوسها، فإنّ ذلك شيء مشترك لجميع الناس، ولكن من جهة أنّه لا يصيب كلا من هذا العرض ما يؤذيه ويشغله، وينغص عليه عيشه. وهذا العرض قد يوجد مرةً في الإنسان من قبل الطبع وما يقع في المولد. وتوجد فيه مرةً أخرى كالشيء العارض الذي لا يكون به عهد.. والذي يوجد منه في طبع الإنسان ومولده وإن كان ألزم له في أيام عمره، إلا أنّه أسلم له مما يناله غريبًا عن طبعه؛ لأنه (عندما يأتي غريبًا عن طبعه) يعرض بقوة وصعوبة ولا يؤمن اشتداده حتى يؤديه إلى ما لا طاقة له باحتماله. وأما الذي يقع له بالطبع، فلا يجوز تزيده عليه بل يوجد كالشيء الذي يعتاده"[1].

اقرأ هذا النص ثم تأمل قدرة البلخي في ذلك الزمان الغابر على التوصل إلى أن المرض الوسواسي القهري لا بدّ أن يكون له أسباب مشتركة بين العوامل النفسية و العضوية. كيف استنبط هذا الاكتشاف المهم؟ ثم كيف وصل إلى أن من العوامل العضوية العامل الوراثي الكامن منذ الولادة، وهو ما توصل إليه علماء اليوم بعد دراستهم للتوائم المتطابقة التي تنمو من بويضة واحدة خصَّبَها حيٌّ منوي واحد ومقارنتها بالتوائم المختلفة والأشقاء العاديين. وقد أكدت لهم هذه المقارنة التي كان التشابه فيها في الإصابة بهذا الداء بين التوائم المتطابقة أكثر من الأشقاء و التوائم المختلفة مما أثبت أنّ الجينات الوراثية لها أثر مهم في الإصابة بهذا الداء. كذلك فقد دلّ تحسن حالة مَنْ يعالجون مِن هذا الداء بالعقاقير النفسية (وفيما مضى من جراحة الدماغ) حتى وإن لم يتم شفاؤهم شفاءً تاماً، أنّ للعوامل العضوية دوراً في إحداث المرض.

ثم تأمل تفريقه الدقيق بين الوساوس العادية التي تصيب كل الناس حتى وإن كانت مزعجةً لهم وتلك التي يتأذى بها المصاب بالعصاب الوسواسي القهري. وهذا يؤكد نظرته إلى الأمراض النفسية على أنها صورة مبالغة لنفس الأعراض التي تصيب الأسوياء.

---

[1] المصدر نفسه، ص323-325.

ثم انظر ملاحظته اللطيفة في التفريق بين السلوك الوسواسي الذي يعتاد عليه مَنْ أكسبته عواملُ الوراثة أو بيئة الطفولة استعداداً للإصابة بهذا الداء حتى يعرف بين الناس بشخصيته الوسواسية القسرية (obsessional personality) فيكيّف حياته على ذلك، وذلك المبتلى الذي تهجم عليه الأعراض دون سابق إنذار بسبب عوامل فسيولوجية أو بسبب اضطرابات نفسية أو عقلية. وهذه ملاحظة دقيقة صحيحة تؤكدها دراسات الطب النفسي الحديث و علم نفس الشواذ.

ويتكلم البلخي بعد ذلك على الوسائل العلاجية، فيذكر أن الاضطرابات النفسية الأخرى أسهل في علاجها؛ لأننا نعرف أسبابها. أما هذا العرض الوسواسي، فإنه مشكل بسبب تشابك الأسباب أو لجهلنا بمعرفة حقيقتها. وأشد أنواع الوسواس – كما يقول – هو ذلك النوع المرتبط بالمخاوف على سلامة الإنسان وجسمه، الأمر الذي جعله يركّز عليه كثيراً. فوسواس توهم المرض أشد فتكًا من الوسواس الذي يدور حول شيءٍ محبب يتمناه المرء؛ لأنّه، كما يقول، "ليس شيء أعزّ على الإنسان من نفسه وحياته"[1]. ثم يناقش بعد هذه المقدمة عدة وسائل وحجج عقلية يستعين بها الموسوس أو مَنْ يعالجه على التغلب على أفكاره المغلوطة، و يقسم العلاج كعادته إلى وسائل خارجية وأخرى داخلية.

أما الخارجية فمن أهمها نصيحة مفيدة لا يذكرها عادةً المعالجون في عصرنا هذا، ألا وهي تجنب الوحدة و الانفراد. ذلك لأنّ الوحدة "تهيّج على الإنسان الفكر وأحاديث النفس"[2]. فإذا شغل الإنسان نفسه بلقاء الناس ومؤانستهم فإنّه يمنع عنها الخواطر الرديئة؛ لأن للنفس –كما يقول – نشاطًا نفسيا محدودًا، إذا لم تشغلها خارجيا شغلتك داخلياً. ومن ثمّ فإن المؤلف يذم الوحدة لكل الناس إلا لعابدٍ يناجي ربّه أو حاكم يدبر أمر رعيته

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه، ص337.

أو لصاحب حكمةٍ يؤلف علماً جديدا. ويشبه من يسعى للانفراد من غير هؤلاء بفساد الرأي وبالحيوانات المتوحشة. ومن الوصايا الخارجية المفيدة أيضاً أن يتجنب الموسوس الفراغ لأنه نظير الوحدة. فعليه أن يشغل نفسه بتعمق وبتركيز في الأعمال المحببة له وأن يبدل من نشاطه من عمل إلى آخر كلما شعر بالملل من نشاط معيّن. كما يحتاج المريض إلى صديق شفيق عليه يساعده على كشف زيف فكره واعوجاج منطقه. وهذه الوسيلة الخارجية الأخيرة هي ما نفعله اليوم عندما نستعين بمعالج نفسي متخصص.

أما الوسائل الداخلية فيستهلها بمثالٍ طريف جميل يشبه فيه أفكار الموسوس المرضية الرديئة بأحلام النوم المخيفة وبالكوابيس المفزعة. فتهاويل الرؤى ما هي إلا أحاديث المنام، وأحاديث نفس الموسوس ما هي إلا تهاويل اليقظة وأكاذيبها. فربّما تأذى المرء بكوابيس النوم حتى "لا يكاد يهنأ بنومٍ"، والموسوس أذيته في يقظته. فإذا تدبر المصاب بالعصاب الوسواسي هذا التحليل اللطيف فسيكسبه الإحساسَ بالتفاؤل وقوة الدافع لتبديل فكره المتشائم الذي لا يتوقع إلا الأسوأ من الأمور و ميله دائمًا "إلى ما هو أشغل للقلب وأشقّ عليه وأذهب به عن حسن الرجاء وتوهم السلامة"[1].

ومن الحيل الداخلية أن ينظر المريضُ في أحوال مَنْ هو أسوأ منه حالاً بالنسبة لما تحدثه به نفسه من الأفكار السيئة والظنون الرديئة. فإذا كانت وسوسة صدره مثلاً عن خوفه من مرضٍ معين لم يصبه حقيقةً ثم وجد مَن هو مصاب بالفعل بهذا المرض لكنه مع ذلك متفائل حسن الظنّ بربّه مستمتع باللذيذ من العيش رغم مرضه وآلامه، فستكون "هذه الفكرة إحدى حججه على خواطره الرديئة"[2]. ويقدم البلخي للموسوس أو من يقوم بمساعدته نصيحة إيمانية روحية عظيمة بأن يتدبر ويتفكر في خلق الله تعالى بتركيبه الأنفس في الأبدان إلى المدة التي قدرها :

---

[1] المصدر نفسه، ص334.

[2] المصدر نفسه، ص345.

"تركيباً على غاية الإحكام والإتقان وشبّك بينهما تشبيكاً لا يكون أقوى وأبلغ منه، فلذلك ترى نفس كل حيٍّ تألف البدن الذي تحله... حتى أنَّ الإنسان لتصيبه الآلام والنكبات الفادحة من الضرب والكسر.. فتتحمل كل ذلك وتعيش معه... (ومنهم) الذين لا يحتمون في العلل.. ويتناولون كل ما يشتهون (وكثير منهم يبرؤن) من عللهم ما لم يبلغوا مبلغ الهرم والفناء.... ففي ذلك دليل على قوة أمر الطبيعة ولطف الاشتباك بين الأرواح والأبدان. كذلك جعل الله سبحانه وتعالى أسباب السلامة أغلب من أسباب الهلكة بالحكم الأعم"[1].

لا شك في أنّ هذه النظرة الروحية الشاملة للظواهر الإيجابية المتفائلة في خلق الله تعالى سيكون لها أعظم الأثر في فكر المريض الموسوس وقلبه وأحاسيسه، وهي من الأمور التي ينساها مَن يعالجون المرضى بالعصاب الوسواسي القهري من أطبائنا المسلمين ومن الاختصاصيين النفسيين.

ويستطرد البلخي في هذا المضمار بقوله إنّه على المصاب بالوساوس المتعلقة بصحته المرتبطة بخوفه المرضي من الموت أن يتدبر في سنن الله تعالى في الكون. فقد جعل الله لكل شيءٍ سببًا يكون مقدمةً لفساده. يضرب البلخي مثالاً لذلك بقوله:

"إنّنا لم نر قطّ بنيانًا قائمًا على أصله فانهدم دفعةً من غير أن يعرض له في ذاته عارض.. من تصدعٍ أو تداعي قبل انهدامه.. وكذلك لم نر مصباحًا موقدًا لم تحترق فتيلته ولم تفن مادته من الدهن... ولم يعرض لها عارض من خارج بإطفاء مطفٍ من ماءٍ أو ريح..فكذلك حياة الإنسان لا يجوز أن تبطل فجأةً من غير أن يعرض لها عارض من داخلٍ أو خارج ما لم يبلغ مبلغًا من الهرم والفناء"[2].

فإن كان من الذين يهتمون بصحتهم من غذاءٍ وهواءٍ نظيف ورياضةٍ بدنية ثم استمر مع كل ذلك في التأثر بحديث نفسه المتشائم فسيكون بهذا المنطق المعوّج كمن

---

[1] المصدر نفسه، ص353-355.

[2] المصدر نفسه، ص347-348.

يستدل في أحكامه (كما يقول المؤلف) بأصحاب التنجيم والمشعوذين[1].

ومن الحجج أنه إذا أيقن أن أفكاره المرضية مجرد أكاذيب نفسية، وهي مع ذلك تعاوده دون هوادة فعليه أن ينظر إليها على أنها عرض مغروس في طبعه ومزاج بدنه. فالأحرى به عند ذلك أن لا يلتفت إليها على الرغم من تكرارها، ويكون كالذي تعوّد على عرض جسمي كالصداع المزمن أو مرض السكري، فلا يأبه لتكرار أعراضه. فإهمال التأثر بالأعراض الوسواسية – كما هو معروف – هو من أنجع الوسائل لعلاجها أو على الأقل التخفيف من حدتها.

نكتفي بهذا القدر في تقديمنا لهذا العبقري الملهم، وننصح المرضى النفسيين والأسوياء بقراءة هذا المخطوط والاستفادة منه، إما في العلاج أو في حفظ الصحة النفسية على أصحابها. ولعل القارئ لهذه الورقة أن يوافقني فيما ذهبت إليه حين قلت في بداية مقالتي إن أطباء النفس والمتخصصين في العلاج النفسي من المسلمين لو قرأوا مخطوطة البلخي بتدبرٍ لكانوا هم السباقين للعلاج السلوكى والمعرفي الحديثين ولأنقذوا علم العلاج النفسي من التخبط والفكر المادي الغربي، ولكن للأسف الشديد مثلنا كمثل العيس التي يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول.

خاتمة

حمانا الله من الكسل والهمّ بأمور الدنيا ونسيان المسؤولية التي وضعت على أعناقنا بما وهبه الله تعالى لنا من علم ومكانة اجتماعية ومهنية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجع:

References:

Al-Balkhi, Abu Zayd, MaÎÉliÍ al-AbdÉn wa al-Anfus (Frankfurt: MaÑhad al-ÑUlËm al-ÑArabiyyah wa al-IslÉmiyyah, 1984).

Badri, Malik B., "Abu-Zayd Al-Balkhi: A Genius Whose Psychiatric Contributions Needed More than Ten Centuries to be Appreciated," Malaysian Journal of Psychiatry, Vol.6, No.2, September 1988.

[1] المصدر نفسه، ص350.

Badri, Malik, "al-ÓthÉr al-Salbiyyah li KhuÌËÑ al-NafsÉniyyÊn al-MuÑÉÎirÊn li al-Fikr al-NafsÊ al-ÑIlmÉnÊ al-×adÈth wa IÑrÉÌuhum Ñan IshÉmÉt al-TurÉth al-IslÉmÊ wa 'IlÉjuhum al-Dunyawi wa al-DÊnÊ", at-Tajdid, Research Management Centre, International Islamic University Malaysia, Vol. 12, No. 23, 2008.

Badri, Malik, "A New Technique for the Systematic Desensitization of Pervasive Anxiety and Phobic Reactions," The Journal of Psychology. No. 65 (1967), pp. 201-208.

Beck, Aaron, Cognitive Therapy and the Emotional Disorders (New York: International Uuniversities Press, 1967).

Bension, Herbert, Timelss Healing (New York: Scribner, 1996).

Browning, Don S., Religious Thought and the Modern Psychologies: A Critical Conversation in Theology of Culture (Minneapolis: Fortress Press, 1987).

Burns, David D., Feeling Good: The Mood Therapy (New York: New American Library, 1980).

Eysenck, H. J., "Cross-cultural psychology and the unification of psychology," World Psychology, Vol. 1, No. 4 (1995).

Eysenk, H. J., The Scientific Study of Personality (Westport, Connecticut: Greenwood Press, 1982).

Lamb, S. D., Pathologist of the Mind: Adolf Meyer and the Origins of American Psychiatry (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2014).

Manuel, Frank Edward, The Age of Reason (Ithaca: Cornell University Press, 1984).

Marx, Melvin H. & A. Hillix, William, Systems and Theories in Psychology (New York: McGraw-Hill Book Co, 3rd edn., 1979).

McMinn, Mark R. & Philips, Timothy R. (ed.), Care for the Soul: Exploring the Intersection between Psychology and Theology (Westmont, IL: IVP Academic Press, 2001).

Moghaddam, Fathali M. & Harré, Rom, "But is it science? Traditional and alternative approaches to the study of social behaviour," World Psychology, Vol. 1, No. 4 (1995).

Peck, M. Scott, The Road Less Traveled and Beyond: Spiritual Growth in an Age of Anxiety (New York: Simon & Schuster, 1997);

Schmideberg, Melitta, "Psychotherapy with Failures of Psychoanalysis," The British Journal of Psychiatry, May 1970, Vol. 116, No. 534 (pp. 574-575).

Thornton, Elizabeth M., Freud and Cocaine: The Freudian Fallacy (London: Blond & Briggs Publishers, 1983).

Vitz, Paul, Psychology as a Religion: The Cult of Self Worship (London: William Eerdmans Publishing, 1977).

Wolpe, Joseph, The Practice of Behavioral Therapy (New York: Pergamon Press Ltd., 1969).

Young, Caroline, Spirituality, Health, and healing (Boston: Jones and Bartlett Publishers, 2005).